الفصل والوصل
بين القاعدة والتطبيق

د. عبد الحميد مصطفى ابراهيم
أستاذ البلاغة والنقد المساعد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم • وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين •

أما بعد

فمما لا شك فيه أن مبحث الفصل والوصل من المباحث التى أولاها البلاغيون والنقاد اهتماما كبيرا بل ان هذا الاهتمام قد وصل الى درجة جعله حدا للبلاغة ••• فقد ذكر الجاحظ أن الفارسى سئل عن البلاغة فقال : معرفة الفصل من الوصل (١) • فنبه بذلك الى أهمية هذا الباب ودقته وغموضه • والى أن التعمق فيه والوصول الى أسراره يعنى الوصول الى البلاغة والتمكن منها •

يقول صاحب الايضاح : وما قصرها عليه لأن الأمر كذلك ، وانما أراد بذلك التنبيه على مزيد غموضه ، وأن أحدا لا يكمل فيه الا كمل فى سائر فنونها (٢) ، وقد جرى البلاغيون والنقاد قديما وحديثا على أن الألفاظ هى جسد الأسلوب الأدبى ، وأن المعانى هى الروح التى تسرى خلاله ، وتمنحه حياة تربط بين أجزائه وتشد بعضها الى بعض ومن هنا يصبح الوقوف على أسرار التآخى بين الكلمات وأسباب التلاحم بين الجمل خفيا دقيقا ، لأنه يشبه الروح فى خفائها ولطفها • فمن توصل

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٨ تحقيق عبد السلام هارون •
(٢) بغية الايضاح ج ٢ ص ٦٣ •

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثامن، مطبعة الأمانة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

الى معرفة تلك الأسرار الخفية أدرك حقيقة البلاغة ووقف على دقائق النظم •

يقول امام البلاغيين عبد القاهر الجرجانى كاشفا عن لطف هـذا الباب ودقة مسلكه : ان العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها ، والمجىء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه الا الأعراب الخلص والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد (٣) •

كما اعتبره العلامة السكاكى محك البلاغة ومضمار النظار ، ومعيار قدر الفهم ، ومسبار غور الخاطر ، ومنجم صوابه وخطئه ، ومعجم جلائه وصدائه ، ومن طبق فيه المفصل كان له فى البلاغة اليد الطولى والقدح المعلى (٤) •

كما أننى عليه العلوى صاحب الطراز فقال : هو باب دقيق المجرى لطيف المغزى جليل المقدار كثير الفوائد غزير الأسرار جعله بعض العلماء حدا للبلاغة وجعل ما سواه تبعا له ومفتقرا اليه (٥) •• فلا عجب اذن أن تكون العلاقة بين الكلمات والتراكيب هى أخص عناصر الأسلوب الأدبى، وسره الدقيق •

والكتاب والشعراء ورجال الأدب والبيان ليسوا جميعا على قدر سواء فى ذلك ، فمنهم من يبذل كل ما يستطيعه من فكر وجهد حتى تخرج صناعته الى الناس مستوفاة الجودة خالصة من الشوائب والعلل المتهالكة ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المقصر الذى تخرج صناعته الى الناس مهلهله النسج متقطعة الأوصال •

---

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٧٠ •
(٤) انظر المفتاح ١١٩ •
(٥) انظر الطراز جـ ٢ ص ٣٢ •

وقد فطن بعض شعراء العرب قديما الى ذلك فكان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه حتى يخرج كلامه الى الناس منقحا مهذبا متناسق المعانى مترابط الألفاظ والتراكيب •• والكلام اذا سلم من حيف التأليف ، وبعد من سماجة التركيب قبلته النفس،واستعذ به السمع،وتمكن فى العقل •

وقد ذكر الجاحظ : أن أجود الشعر ما رأيته متلاهم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ افراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان (٦) •

وقد شبه النقاد الشعر المتنافر الأجزاء الذى لا تتجانس ألفـــاظه ولا تتلاءم ببعر الكبش وبأبناء المعلات ، وذكروا فى ذلك قول خلف الأحمر

وبعض قريض القوم أبناء علة يكد لسان الناطق المتحفظ

وقول الآخر :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه
لسان دعى فى القريض دخيل

وذلك اذا كانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض فتند الكلمة عن مكانها ، وتنبو عن موضعها ، ويصبح الكلام كبعر الكبش ، لأنه يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور ، وهو عيب من أهم العيوب التى تلحق الكلام وتنقص من بلاغة قائله ••• قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك ! قال : وبم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت واخاه،وأنت تقول البيت وابن عمه ••• وقيل لرؤبة : ان ابنك عقبة بن رؤبة يقول الشعر ، قال رؤبة : نعم انه ليقول ، ولكن ليس لشعره قران ، وقد أراد بقوله « قران » التشابه والتشاكل والموافقة (٧) •

---

(٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٥ •
(٧) انظر البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٠٥ •

ويؤكد أبو هلال العسكرى على أهمية التلاؤم بين الكلم فيقول : ان تخير الألفاظ وابدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نعوته ، وأزين صفاته ، فان أمكن ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كأن أحسن له ، وادعى للقلـوب اليه ، وان اتفق له أن يكون موقعه فى الاطناب والايجاز أليق بموقعه وأحسن بالمقام والحال ، كان جامعا للحسن بارعا فى الفضل ، وان بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره ، وأوله يكشف قناع آخره كان قد جمع نهاية الحسن وبلغ أعلى مراتب التمام • ومثاله قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أشارت بأطراف البنان المخضب
وضنت بما تحت النقاب المكتب
وعضت على تفـاحة فى يمينهـا
بذى أشر عذب المذاقة أشـنب
وأومت بها نحوى فقمت مبادرا
اليها فقالت هل سمعت بأشعب

فهذا من أجود الشعر سبكا ، وأشده التئاما كل كلمة منه مضمومة مع أختها ، ومقرونة بلفقها ، ووضعت حروف الربط وهى الواو والفاء فى مواضعها الألصق بها والأنسب بمكانها(٨) •

واذا جاء الكلام على هذا الأسلوب لذ سماعه ، وخف محتمله ، وعذب النطق به ، وحلى فى فم السامع ــ فاذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه ، وثقل على لسان الناطق ، ومجته المسامع ، فلم يستقر فيها منه شىء •

وقد شبه البلاغيون التأليف والرصف بين الألفـاظ بالتأليف بين

---

(٨) انظر الصناعتين ص ١٣٥ •

حبات العقد .. اذا جعلت كل خرزة منه فى موضعها ، وقرنت بما يليق بها كان أحمل فى مرأى العين ، وأحسن قبولا لدى النفس ، وان اختل نظمه وقرنت كل حبة منه بما لا يليق بها ، قبح فى مرأى العين وأبت النفوس أن تقبله .

يقول ابن رشيق : والعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجانس وتطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر ، واحكام عقد القوافى ، وتلاحم الكلم بعضه ببعض حتى عدوا من فضل صنع الحطيئة حسن نسقه بعضه ببعض فى قوله :

فلا وأبيك ما ظلمت قريع
بأن بينوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيك ما ظلمت قريع
ولا برموا لذاك ولا أساءوا
بعثرة جارهم أن ينعشوها
فيغبر حوله نعم وشاء
فيبنى مجدهم ويقيم فيهم
ويمشى ان أريد به المشاء
وان الجار مثل الضيف يغدو
لوجهته وان طال الثواء
وانى قد علقت بحبل قوم
أعانهم على الحسب الثراء (٩)

---

(٩) انظر العمدة جـ ١ ص ١٣٠ تحقيق محيى الدين عبد الحميد دار الجيل .

فقد جاءت ألفاظ الشاعر وتراكيبه متناسقة متآزرة آخذة برقاب بعضها البعض .. فالممدوحون وهم آل شماس من حقهم أن يضعوا مكارمهم ونعمهم حيث أرادوا ، وهم لم يظلموا ولم يسيئوا حين أكرموه وجبروا عثرته وهو جارهم ، فاكرام الجار حق وواجب ، وقد فاض كرمهم عليه ومنحوه الابل والشاه•وهى أغلى ما عند العرب حتى أصبح فى نعمة وثراء ، وهم لم يأسروه بتلك النعم ولم يحدوا من حريته فهو فى جوارهم يتمتع بالحرية الكاملة فى الاقامة أو الارتحال فمثله مثل الضيف لا يقيم دائما بين من أكرموه وأجاروه بل لا بد أن يرحل مهما طالت اقامته ، وآل شماس أهل كرم وثراء وحسب وشرف ، وكل ذلك ينعكس على جارهم •

ومما جاء على تلك الدقة من حسن التلاؤم والنظم قول أبى ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد :

فوردن والعيوق مقعد رابىء الـ
ـضرباء خلف النجم لا يتتلع
فكر عن فى حجرات عذب بارد
حصب البطاح تغيب فيه الأكرع
فشربن ثم سمعن حسادونه
شرف الحجاب وريب قرع يقرع
فنكرنه فنفرن فامترست به
هوجاء هادية وهاد جرشع
فرمى فأنفذ من نحوص عائط
سهما فخر وريشة متصمع
فبدا له أقراب هاد رائغا
عنه فعيث فى الكنانة يرجع

فرمى فألحق صـــاعديا مطحـــرا
بالكشح فاشتملت عليه الأضـــلع
فأبـــدهن حتوفهن فهـــارب
بذمـــائه أو بارك متجعجع (١٠)

قال ابن رشيق : فأنت ترى هذ النسق بالفاء كيف اطرد له ، ولم ينحل عقده ولا اختل بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته اياه لما تمكن له هذا التمكن .

وقد علق الدكتور محمد أبو موسى على كلام ابن رشيق بقوله : « ولعل ابن رشيق أراد قوة الحركة واندفاعهـــا ، وتـــلاحق الأحداث وسرعتها والاستجابات الخاطفة ، وما يمور به هذا المشهد من الانفعالات والهواجس والمخاوف والحذر ، والمحاولات المسعورة للافلات من فم الموت ، وفيها حركات خفية ودقيقة ، وحركات طائشة مذعورة ذات أبعاد وملامح ، وقد استطاع الشاعر أن يسيطر على هذا كله سيطرة كـــاملة

---

(١٠) العيوق : نجم أحمر مضيء يتلو الثريا لا يتقدمه ، والرابىء : الحارس ، أو الذى يرقب الشيء يقال : ربأت القـــوم اذا كنت لهم طليعة فوق شرف ، والضرباء : جمع ضريب وهو الموكل بالقداح أو الذى يضرب بها ، وضريب الشيء مثله ، ولا يتتلع : لا يتقدم ، وكرعن : أى جئن الى الكرع ، والكرع ماء السماء اذا اجتمع فى غدير أو مســـاك .. والاكرع جمع كراع وهو من ذوات الحافر مادون الرسغ ،وامترست به : قربت منه بمنزلة من يحتك بالشيء ، والهوجاء : مؤنث أهوج والأهواج : الأحمق السريع ،والهادية : المتقدمة ، والجرشع : العظيم الصدر . وقيل الطويل المنتفخ الجنبين ،والنحوص : السمينة ،والعائط : التى لم تحمل،ومتصمع: متلطخ بالدم ، وعيث : أدخل يده فى الكنانة يطلب سهما ، والمطمحر : الســـهم البعيـــد الذهاب ، ومتجعجـــع : برك فى الأرض من الوجع الذى أصـــابه .

لم تفلت منه فيه اختلاجة نفس ، ولا حركة جسم الا رصدها وسلسلها وضبطها وأتقنها ... ثم يقول : وقد امتلأ الشعر بهذه الفاءات التى تضبط تسلسل الموقف والمعانى والأحداث ، وتجعلها متداخلة الأطراف حتى يكون ثانيها آخذا بذنب أولها .. » (١١) .

فهذا النوع من الشعر وأمثاله كثير جدا فى الشعر العربى ، وهو بين لمن تأمله .. تراه وقد تضامت ألفاظه وحسن تأليفه ، وتزاوج نظمه ،

وقد سماه « الرمانى » المتلائم فى الطبقة الوسطى حيث قسم الكلام الى ثلاثة أقسام . متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا وخصها بالقرآن الكريم (١٢) .

فالقرآن الكريم كله فى الطبقة العليا ، والطبقة الوسطى يتفاوت فيها البلغاء والفصحاء من البشر تفاوتا كبيرا حسب الأقدار والطبائع وقوة الملكات ، أما الطبقة الدنيا فهى المعيبة ، وكثيرا ما يقع فيها الشعراء فيجيئون بأبيات تعاب عليهم لعدم التناسب والتلاؤم بين أجزاء البيت. ومما جاء من ذلك قول السموءل :

فنحن كماء المزن ما فى نصابنا
كهام ولا فينا يعد بخيل(١٣)

ليس قوله « ما فى نصابنا كهام » من قوله « فنحن كماء المزن » فى

---

(١١) دلالات التراكيب ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .
(١٢) انظر ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ٩٥ .
(١٣) الكهام من كهم الرجل كهامة اذ ضعف وجبن عن الاقدام . أى ليس فينا رجل ضعيف أو جبان .

شيء اذ ليس بين ماء المزن والنصاب والكهام مقاربة ، ولو قال : ونحن ليوث الحرب ، أو أولوا الصرامة والنجدة ما فى نصابنا كهام،لكان الكلام مستويا •• أو قال : ونحن كما • المزن صفاء أخلاق • وبذل أكف لكان جيدا •

ومن المتنافر الصدر والأعجاز قول حبيب بن وس :

محمد ان الحاسدين حشـــود

وان مصـــاب المزن حيث تريد

ليس النصف الأول من النصف الثانى فى شيء (١٤) •

هذا ولما كان أكثر العيوب التى تلحق الكلام • انما تعود فى الغالب الأعم الى قبح التلاؤم بين الألفاظ ، وعدم التآخى بين معانى التراكيب فقد نشـــط البـــلاغيون فى الحديث عن هذا الأمر ، وذكروا الكثير من القواعد والقوانين التى تحكم التآخى والارتباط بين الجمل فى الاسلوب البليغ ، وقد ضم باب الفصل والوصل هذه القواعد •• وسوف نرى أن أغلب المقاييس والمصطلحات التى وضعها البلاغيون لتحكم هذا الأمر ليست مطردة بل تتوارى كثيرا فى فصيح الكلام ، وتصبح مقاصد الكلام ودلالاته هى الحكم فى عملية الربط بين التراكيب •• ولعل هذا هو السبب الذى جعل البلاغيين ينبهون الى غموض هذا الباب ودقته •

يقول الخطيب التزوينى بعد أن حدد معنى الوصل والفصل بقوله : الوصل عطف بعض الجمل على بعض ، والفصل ترك هذا العطف ••• وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فن منها عظيم الخطر صعب المسلك دقيق المأخذ ، لا يعرفه على وجهه ولا يحيط

---

(١٤) الصناعتين ص ١٣٨ •

علما بكنهه الا من أوتى فى فهم كلام العرب طبعا سليما ورزق فى ادراك أسراره ذوقا صحيحا(١٥) .

وقد سار الخطيب وقبله السكاكى تبعا لعبد القاهر ــ على أن الدقة البلاغية تظهر فى هذا الباب فى شأن العطف بـــ « الواو » دون غيرها من أدوات العطف ، وذلك لأن الواو لا تدل الا على الجمع والتشريك ، بخلاف غيرها من الأدوات فانها تفيد معانى أخرى الى جانب التشريك فى الحكم .

يقول عبد القاهر : واعلم أنه انما يعرض الاشكال فى الواو دون غيرها من حروف العطف ، وذاك لأن تلك تفيد مع الاشراك معانى . مثل أن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ ، و « أو » تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه ، فاذا عطفت بواحد منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة ، فاذا قلت مثلا ، أعطانى فشكرته ، ظهر بالفاء أن الشكر كان عقب العطاء ، ومسببا عنه ، واذا قلت : خرجت ثم خرج محمد أفادت « ثم » أن خروجه كان بعد خروجك ، وأن مهلة وقعت بينهما (١٦).

وعلى ذلك جاء قوله تعالى «قتل الانسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره » (١٧) فتأمل كيف بدأت تلك الآيات بالدعاء على الانسان بأشنع الدعوات لافراطه فى الكفر . هذا الكفر الذى يستحق التعجب والعجب اذ كيف يحدث بعد تلك النعم الجليلة التى أنعم الله بها عليه ، والتى لو تأملها هذا الكافر أدنى تأمل لأدرك عظمة الله وقدرته واستحقاقه الشكر وحده ... ثم ذكر بعض تلك النعم وهى خلقه من النطفة وتقديره ... الخ

---

(١٥) بغية الايضاح جـ ٢ ص ٦٢ ، ٦٣ .
(١٦) دلائل الاعجاز ص ١٧٢ .
(١٧) الآيات من ١٧ ــ ٢٢ سورة عبس .

فجاء قوله « من نطفة » من غير عاطف لأنها واردة على طريق التفسير والبيان لقوله « من أى شىء خلقه » فهى متصلة بما قبلها اتصـــالا ذاتيا يغنى عن العاطف كما سنرى فيما بعد • ثم عطف قوله « فقدره » بالفاء تنبيها على أن التقدير مرتب على الخلق ، وعلى عدم التراخى بينهمـــا وعطف قوله « ثم السبيل يسره » بـــ « ثم » لما بين خلقه وتقديره فى بطن أمه وبين اخراجه منه وتسهيل سبيله من التراخى والمهلة ، ثم عطف الاماتة بثم تنبيها لمـــا قد يكون بينهما من التراخى ثم عطف الاقبار بالفاء لأنه ليس بين موت الانسان واقباره تراخ أو مهلة ، ثم عطف الانشار بثم لما بين موته ونشـــوره من المهلة واللبث(١٨) ، فمـــا أعجب تلك اللطائف والمعانى الرائقة البديعة التى دلت عليها الفاء وثم فى تلك الآيات•

أما الواو فانها لا تدل ـــ كما ذكر علماء اللغة ـــ الا على الاشراك فى الحكم ، فاذا استخدمها المتكلم أدرك السامع أنه يرمى الى مجرد الجمع والتشريك •

وقد رأى البلاغيون بدءا من امامهم عبد القاهر الجرجانى أن أمر الفصل والوصل انما يخفى ويدق فى الجمل فقط دون المفردات بل فى نوع واحد من الجمل،وهى تلك التى ليس لها حكم سواء أكان اعرابيا أم غير اعرابى •••

أما المفردات فان سر العطف وتركه فيها ـــ كما يقول البلاغيون ـــ جلى واضح •• فمتى قصد المتكلم اشراك الثانى للأول فى اعرابه عطفه عليه ، واذا أشركه فى اعرابه فقد أشركه فى حكم هذا الاعراب •

نحـــو أن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل مثـــله ، والمعطوف على المنصوب بأنه مفعول به أو له شريك له فى ذلك •• ومتى لم يقصد المتكلم ذلك التشريك ترك العطف •

---

(١٨) انظر الطراز المجلد الثانى ص ٤٤ •

والحق أن ما قرره البلاغيون فى شأن العطف بين المفردات ليس على اطلاقه ، لأن العطف وتركه بين المفردات قد يكون فى كثير من الأحيان محتاجا الى التأمل الدقيق ، والى التبصر والتفكير لما له من فـــائدة لطيفة وغرض دقيق سيق من أجله •

فاذا قرأنا مثلا قول الحق سبحانه وتعالى « عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » (١٩) •

رأينا أن الصفات قد وردت متتابعة ، وأخليت جميعها من الواو العاطفة الا بين الثيبات والأبكار • ذاك لأنهما صفتـــان متنافيتان لا تجتمعان فيهن فى وقت واحد ، فجىء بالعطف لرفع التناقض ، بخلاف الاسلام والايمان والقنوت والتوبة ، وغير ذلك من الصفـــات المذكورة فيمكن اجتماعها فيهن فى وقت واحد •

ومن ذلك أيضا قوله تعالى « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » (٢٠) •

فقد توسطت الواو بين « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر » لأنه لما كان الأمر بالمعروف ملازما للنهى عن المنكر وعكسه عطف عليه ليكونا صفتين مستقلتين بالفضل ، بخلاف ما قبله فانه لا يتوهم أن أمرين منهما صفة واحدة ، أما ذكرها مع قوله « والحافظون لحدود الله » فلئلا يتوهم اختصاصه بأحد الوجهين (٢١) •

---

(١٩) آية ٥ سورة التحريم •
(٢٠) آية ١١٢ سورة التوبة •
(٢١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ١٠٧ •

وقيل : لقربه من المعطوف بالواو ، وقيل : هى واو الثمانية المعروفة عند النحاة (٢٢) ، كما فى قوله « سبعة وثامنهم كلبهم » .

ذكر الزركشى فى البرهان : أن العرب تدخل الواو بعد السبعة ايذانا بتمام العدد ، فان السبعة عندهم هى العقد التام ، فيأتون بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فتقول : خمسة ستة ، سبعة ، وثمانية ،فيزيدون الواو اذا بلغوا الثمانية . وقد نقل ذلك عن ابن خالويه وغيره . ومثلوا لهـا بقول الله تعالى « وثامنهم كلبهم » بعدما ذكر العدد مرتين بغير واو ، وبقوله فى صفة الجنة « وفتحت أبوابها » بالواو لأنها ثمانية ، وفى صفة النار « فتحت أبوابها » بغير واو لأنها سبعة (٢٣) ...

وأرى أن الاقتصار على القول بأن هذه الواو هى واو الثمانية دون التعليل لسبب مجيئها هو هرب من البحث عن العلل الحقيقية والأسرار البلاغية التى وضعت من أجلها الواو فى تلك المواطن وأمثالها ، ولهذا لم يثبت كثير من المحققين واو الثمانية ، ولم يكتف البلاغيون والمفسرون بذكر هذا السبب وانما حاولوا الغوص فى أعماق المعانى والتراكيب لاكتشاف أسرار تلك الواو ودلالاتها .

ففى قوله تعالى « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل »(٢٤) .

ذكر أن الواو الداخلة على قوله « وثامنهم كلبهم » وأمثال ذلك من

---

(٢٢) انظر فتح القدير مجلد ٢ ص ٤٠٨ .

(٢٣) انظر البرهان جـ ٤ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٢٤) آية ٢٢ سورة الكهف .

الجمل الواقعة صفة للنكرة ، انما تدخل لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ثباتها واستقرارها .

يقول صاحب الكشاف « فان قلت : فما هذه الواو الداخلة على قوله تعالى « وثامنهم كلبهم » ولم دخلت عليها دون الأولين ؟ قلت : هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما فى قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، وكما فى قوله تعالى « وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم » وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا : سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات وطمأنينة ، ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم .. والدليل على ذلك أن الله تعالى اتبع القولين الأولين قوله « رجما بالغيب » وأتبع الثالث قوله « قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل » . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : حين وقعت الواو انقضت العدة . أى لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت اليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات (٢٥)

قال الامام أحمد بن المنير تعليقا على ذلك ، وهذا هو الصواب لا كمن يقول : انها واو الثمانية فان ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم (٢٦) .

ولم يقر السكاكى ولا السبكى ما ذكره الزمخشرى وقالا : ان الواو لا تقع بين الصفة والموصوف وذكرا أن الواو فى قوله تعالى « وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم » هى واو الحال والجملة حال من النكرة لوقوعها بعد النفى . ونقل السبكى قول ابن الحاجب أن الواو لا تقع بين الصفة والموصوف وأن قوله تعالى « وثامنهم كلبهم » عطف خبر على خبر ، لأن الأخبار يعطف بعضها على بعض (٢٧) .

---

(٢٥) الكشاف مجلد ٢ ص ٤٧٩ .

(٢٦) انظر كتاب الانصاف جـ ٢ ص ٤٧٨ بهامش الكشاف .

(٢٧) انظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ ٣ ص٣١، ٣٢

أما لماذا ذكرت الواو مع أبواب الجنة فى قوله تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها»(٢٨) فى حين لم تذكر قبل ذلك مع أبواب النار فى قوله تعالى « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذاجاءوها فتحت أبوابها » (٢٩) •

فذاك لأن أبواب الجنة فتحت للمؤمنين قبل أن يأتوا اليها تكريما لهم ، والتقدير حتى اذا جاءوها وأبوابها مفتحة،بدليل قوله « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » •

أما حذفها فى أبواب النار فللدلالة على أنهـا فتحت بعد مجيئهم ووقوفهم عليها اذلالا لهم وترويعا (٣٠) •• وليس كمـا قالوا من أن أبواب الجنة ثمانية فذكرت الواو وأبواب النار سبعة فلم تذكر الواو، والا فأين ذكر العدد هنا حتى ينتهى الى الثامن فتصحبه الواو ؟ •يقول السبكى : « وأما قولهم : واو الثمانية فهو كلام ضعيف ليس له أصل طائل ، وان وقع فى كلام كثير من الأئمة » (٣١) •

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير فى أمر واو الثمانية الى ما كنا : فنقول : ان الواو فى قوله « والناهون عن المنكر » دخلت والله أعلم لما بينه وبين ما قبله من التناسب والربط بدليل اقترانهما فى جميع مصادرهما وموارداهما كقوله تعالى « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقوله « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » فنبه بالواو الى ما بين الأمر والنهى من التباين والتناسب ، والى ما فيهما من المشقة والجهد لتعلقهما بالغير، وتأثيرهما فى سلوك الانسان •

---

(٢٨) سورة الزمر ٧٣ •

(٢٩) سورة الزمر آية ٧١ •

(٣٠) انظر فتح القدير ج ٤ ص ٤٧٨ •

(٣١) عروس الأفراح ج ٣ ص ١١٤ •

أما دخل الواو على « الحافظون لحدود الله » فلبيان أنها صفة مستقلة لهم ، ولو تركت الواو لربما توهم اختصاص تلك الصفة بالنهى عن المنكر أو الأمر بالمعروف •

وقد ذكر العلوى صاحب الطراز وغيره من البلاغيين • أن الصفات يمتنع عطفها على موصوفها ، فلا يجوز أن تقول : جاء محمد والكريم • على أن الكريم هو محمد،لاستحالة عطف الشيء على نفسه،ويجوز عطف بعضها على بعض باعتبار المعانى الدالة عليهـا ، فتقول : مررت بزيد الكريم والعاقل والعالم ، كأنك قلت : مررت بشخص اجتمع فيه الكرم والعقل والعلم •

فقد اجتمع فى الصفة دلالتها على ذات الموصوف ، ودلالتها على معنى فى الذات ، فلأجل تلك المعانى التى تدل عليها جاز فيها العطف ، ولأجل كونها دالة على الذات قل فيها عطف بعضها على بعض ، وامتنع عطفها على الموصوف (٣٢) •

وقول العلوى : ان عطف الصفات على بعضـها قليل فيه شيء من الدقة بدليل أن أكثر البـلاغيين والمفسرين يعللون فى مثل تلك المواطن لسبب وجود الواو ، وكأنهم يرون أن الأصل تركها ، فاذا وجدت كـان ذلك لسر من الأسرار ، وخصوصية من الخصائص التى تراعى فى بلاغة التراكيب •

أما الصفات الجارية على الله تعالى فقلما يأتى فيها العطف ، وما ذاك الا لأنها أسماء دالة على الذات باعتبار هذه الخصائص لها ، ووافقت الذات فى عدم الأولية لها ، فلأجل هذا جرت مجرى الأسماء المترادفة كقوله تعالى « هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن

---

(٣٢) انظر الطراز ج ٢ ص ٣٤ •

المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى »(٣٣) .

وقد ذكر الدسوقى فى حاشيته على شرح السعد أن عدم العطف هو الأحسن ما لم يكن فيها ايهام التضاد والا كان العطف أحسن (٣٤) كقوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » (٣٥) فهذه معان متضادة فى أصل موضوعها فجاءت الواو رافعة لتوهم من يستبعد اجتماع ذلك للخالق جل وعلا ، فالواو الأولى دلت على أنه سبحانه هو الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والثالثة دلت على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فقد دلت على أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين والأخريين وهى صفات لا تكون الا للخالق جلت قدرته فهو وحده المستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو فى جميعها ظاهر وباطن جامع الظهور بالأدلة ، والخفاء فلا يدرك بالحواس(٣٦) .
وذكر الدسوقى أن استحسان العطف هنا ليفهم منه معنى الجمع ، ونفى التناقض ، وهذا فى المفردات ، وأما الجمل فمتى قصد التشريك وجب العطف والفرق بينهما كون الصفات المفردة كالشىء الواحد من الموصوف لعدم استقلالها بخلاف الجمل فانها لاستقلالها ، لا يدل على تعلقها بما قبلها الا العطف (٣٧) .

---

(٣٣) ٢٣ ، ٢٤ سورة الحشر .
(٣٤) انظر حاشية الدسوقى بهامش شروح التلخيص جـ ٣ ص ٧
(٣٥) آية ٣ سورة الحديد .
(٣٦) الكشاف مجلد ٤ ص ٦١ وانظر تفسير أبى السعود مجلد ٨ ص ٢٠٤ .
(٣٧) حاشية الدسوقى ص ٧ .

وفى قوله تعالى « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير » (٣٨) جاءت جميع الصفات بغير واو الا قوله « قابل التوب » ولعل سر ذلك — والله أعلم — هوالقصد الى بيان أنها صفة مغايرة لما قبلها ، وهى قوله « غافر الذنب » اذ ربما يتوهم الاتحاد •• وذكر صاحب الكشاف أن لمجىء الواو هنا نكتة جليلة هى افادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب كأنه لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول(٣٩) •

وذكر الرازى أنه لو لم يذكر الواو فى قوله « غافر الذنب وقابل التوب » لاحتمل أن يقع فى خاطر انسان أنه لا معنى لقوله « غافر الذنب » الا كونه قابل التوب ، فلما ذكر الواو زال هذا الاحتمال ، لأن عطف الشىء على نفسه محال •• أما قوله « شديد العقاب » فمعلوم أنه مغاير لكونه « غافر الذنب وقابل التوب » فاستغنى عن ذكر الواو (٤٠) •

فقد نبه سبحانه وتعالى أولا على أنه فاعل الأمرين جميعا • مغفرة الذنب وقبول التوبة ، ليكون ذلك لرجاء الرحمة من عنده • والأمل فى العفو برحمته وكرمه ، ثم عقبه بقوله « شديد العقاب » تحذيرا عن مواقعة الخطايا ، وملابسة المعاصى ، وزجرا عن الاتكال على ما سلف من الغفران وقبول التوبة (٤١) •

---

(٣٨) سورة غافر ٢ ، ٣ •

(٣٩) الكشاف جـ ٣ ص ٤١٣ •

(٤٠) انظر التفسير الكبير المجلد الرابع عشر جـ ٢٧ ص ٢٩ • دار الفكر •

(٤١) انظر الطراز جـ ٢ ص ٣٧ •

وقد تدخل الواو بين صفات البشر وقد لا تدخل ــ كما ذكرنا ــ ولا يخلو ذلك فى الغالب من سر يقتضيه المقام ، ومن ذلك قوله تعالى الصابرين و لصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ..»(٤٢) فقد ذكرت الواو هنا ولم تترك كما فى قوله تعالى « التائبون العابدون » وقد ذكر الزمخشرى : أن الواو توسطت بين الصفات هنا للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها (٤٣) . أما الرازى فيرى أن سبب ذلك هو أن كل من كان معه واحدة من هذه الخصال دخل تحت المدح العظيم واستوجب هذا الثواب الجزيل والله أعلم(٤٤) .

ولعل سياق الآيات السابقة يقوى رأى الزمخشرى فقد أثنت الآيات السابقة على هؤلاء الموصوفين بتلك الصفات ووعدهم الله بأعظم الثواب . قال تعالى « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » (٤٥) وبعدها قوله « الصابرين والصادقين .. » فهؤلاء الذين وعدهم الله الجنة والأزواج المطهرة والرضوان من الله الذى هو أكبر من كل ثواب ، كما قال سبحانه وتعالى « ورضوان من الله أكبر » هؤلاء المستحقون اذلك لا بد أن يكونوا من الكاملين فى كل صفة من تلك الصفات والله سبحانه وتعالى أعلم ..

فاذا جئنا الى قول الحق سبحانه وتعالى فى صفات المنافقين « صم بكم عمى فهم لا يرجعون »(٤٦) وجدنا أن الواو لم تتوسط هذه الصفات

---

(٤٢) سورة آل عمران ١٧ .

(٤٣) انظر الكشاف ج ١ ص ٤١٧ .

(٤٤) انظر التفسير الكبير المجلد الرابع ص ٢٢٠ .

(٤٥) سورة آل عمران ١٥ ، ١٦ .

(٤٦) آية ١٨ سورة البقرة .

وسر ذلك ــ والله أعلم ــ أنه أراد ان هذه الصفات قد اجتمعت على كل واحد منهم ، بمعنى أن كل واحد منهم قد اتصف بتلك الصفات مجتمعة فهو أصم وأعمى وأبكم ، ولو توسطت الواو هنا لربما توهم أن المعنى على التوزيع ، وأن بعضهم أصم ، وبعضهم أبكم ، وبعضهم أعمى •

ويقرب من هذا قوله تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم » (٤٧) •

جاءت هذه الصفات بدون عطف لأن القصد ــ والله أعلم ــ هو جمع تلك الصفات فى حق من نزلت فيه الآية ، ولو توسطت الواو فقيل مثلا : ولا تطع كل خلاف مهين وهماز ومشاء بنميم • لربما فهم أن هذه الصفات على التوزيع ، وأنها ليست مجتمعة فى شــخص من نزلت فيه الآية •

وهكذا نرى أن سياق الكلام والقصــد منه هو الذى يحدد مجىء الواو من عدمه •

ألست معى الآن فى أن العطف وتركه بين المفردات يشتمل أيضــا على دقائق وخصائص بلاغية جديرة بالنظر والاعتبار ، وليس الأمر فيه هينا كما ذكر بعض البلاغيين •

أما اقتصار كثير من البلاغيين على أن دقائق هذا الباب وخفاياه انما تكمن فى الواو دون غيرها من أدوات العطف،فهو أيضا أمر يحتاج الى نظر •• ذاك أن غير الواو من الحروف العاطفة قد يحتاج فى أحيان كثيرة الى نظر صائب ، وفكر ثاقب للتعرف على سر مجيئه ، لما يدل عليه من معان دقيقة تعود فى الغالب الأعم الى علم البلاغة دون علم الاعراب •

---

(٤٧) الآيات من ١٠ ــ ١٣ سورة القلم •

فحرف العطف « ثم » مثلا ، ذكر النحويون أنها للترتيب المتراخى ، الا أن هذا المعنى الذى ذكروه كثيرا ما يتوارى وتحل محله معان أخرى يقوم بها هذا الحرف • فمثلا قول الحق سبحانه وتعالى « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » (٤٨) لا يصح هنا حمل « ثم » على معناها الأصلى الذى وضعت له ، لأن الهداية سابقة على ما قبلها ولهذا حمل العلماء الهداية على معنى الاستقامة والثبات على المذكور قبلها وهو التوبة والعمل الصالح ، ودلت « ثم » على تباين المنزلتين بمعنى أن منزلة الاستقامة والاستمرار على الايمان والعمل الصالح أعلى وأفضل من مجرد التوبة والايمان ، وفيه دلالة على أن من لم يستمر على ذلك بمعزل عن الغفران •

وفى قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (٤٩) دلت « ثم » على الأهمية العظيمة ، والمنزلة العالية لاتباع نبينا صلى الله عليه وسلم ملة ابراهيم عليه السلام •

فقد ذكر الزمخشرى أن « ثم » هذه فيها ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجلال محله حيث جعل اتباعه ملة ابراهيم من أجل النعم التى أنعم الله بها على خليله ، فقد آذنت « ثم » بأهمية هذا النعت من بين سائر النعوت التى أثنى الله بها على ابراهيم عليه السلام(٥٠) ••• فكأن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عدد مناقب

---

(٤٨) سورة طه ٨٢ •

(٤٩) الآيات من ١٢٠ ـ ١٢٣ سورة النحل •

(٥٠) انظر الكشاف مجلد ٢ ص ٤٣٤ •

ابراهيم عليه السلام ، ذكر أن ههنا منقبة أعلى من تلك المناقب قدرا ، وأرفع رتبة ، وهى أن النبى الأمى محمدا صلى الله عليه وسلم الذى هو سيد المرسلين متبع لملة ابراهيم عليه السلام ، وفى هذا تعظيم لهما معا ، لكن نصيب النبى صلى الله عليه وسلم من هذا التعظيم أكثر .

وقد ذكر ابن يعقوب المغربى أن « ثم » قد تكون لاستبعاد مضمون ما بعدها عما قبلها ، ولو اقترن مضمونهما كما فى قوله تعالى : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » فان الاستغفار مع التوبة التى هى الانقطاع الى أمر الله بترك المعصية يقترنان ، وربما سبقت التوبة ، فعطفت التوبة على الاستغفار بثم ايماء الى أن منزلة الانقطاع الى الله تعالى بالمعنى المذكور أعلى من الاستغفار باللسان (٥١) ... وقد تكون لمجرد التدرج فى درج الكمال كقول الشاعر :

ان من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد بعد ذلك جده

لا يمكن القول بأن « ثم » هنا على معناها الاصطلاحى المعروف ، وهو الترتيب المتراخى ، لأن سيادة الجد والأب سابقتان على سيادة الابن ، لكن أتى بثم اشارة لتدرج الممدوح فى مدارج الكمال مع بيان الأولى منها بالتقديم ، لأن الأولى بالانسان سيادته ثم تليه سيادة أبيه ، وان كان الكل مدحا له (٥٢) .

وقد تأتى « ثم » للتعجب والانكار كما فى قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون »(٥٣) .. فقد دلت « ثم » على انكار ما عليه الكفرة

---

(٥١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ٣ ص ١٦ .

(٥٢) انظر حاشية الدسوقى ع شرح السعد شروح التلخيص جـ ٣ ص ١٦ .

(٥٣) سورة الأنعام آية ١ .

واستبعاده ، والتعجب منه ، اذ كيف يساوون غير الله به فى العبادة بعد وضوح الآيات التى تدل على أنه سبحانه وتعالى الخالق لكل شىء القادر على كل شىء ، وكل ما عداه لا حول له ولا قوة .

تلك هى بعض المعانى والدلالات التى يؤديها هذا الحرف ، وهى معان بلاغية تحتاج الى نظر وتأمل لكشفها وايضاحها ، فقول البلاغيين ان الخفاء فى هذا الباب انما يكون فى الواو خاصة ليس على اطلاقه ، ولعل هذا هو ما دفع السبكى الى القول بأن الجمل التى لا محل لها من الاعراب وغيرها سيان فى اقتضاء العطف وعدمه والواو وغيرها سواء فى اقتضاء الوصل وعدمه فليس المعتبر غير الجهة الجامعة سواء أكانت الجملة الأولى لها محل أم لا وسواء أكان العطف بالواو أم بغيرها (٥٤) ... غير أن الجهة الجامعة اذا كانت الجمل لها محل من الاعراب أو كان العطف بغير الواو تكون ظاهرة قريبة التناول بخلافها اذا كانت الجملة ليس لها محل أو كان العطف بالواو (٥٥) .

واذا كان الوصل والفصل بين المفردات من شأنه أن يدق ويخفى أحيانا كثيرة حتى يحتاج الى نظر وتأمل ، فان هذا الشأن فيما بين الجمل يكون أكثر دقة وخفاء واحتياجا الى النظر والتأمل .. وقد قسم البلاغيون الجمل الى ثلاثة أقسام : جملة لها حكم اعرابى — جملة لها حكم غير اعرابى — جملة ليس لها حكم على الاطلاق .

فالجملة التى لها حكم اعرابى مثل جملة « يكتب » فى قولنا : محمد يكتب . تأخذ حكم المفرد لوقوعها موقعه ، حيث وقعت خبرا عن المبتدأ ، فاذا جاءت بعدها جملة أخرى مثل « يقرأ » وأردنا اشراك الثانية للأولى فى الحكم الاعرابى عطفت عليها . فنقول : محمد يكتب ويقرأ .

---

(٥٤) عروس الأفراح جـ ٣ ص ٥ .

(٥٥) انظر المرجع السابق ص ٥ .

وقد ذكر الامام عبد القاهر أن أمر العطف هنا واضح ظاهر ، لأن الجملة الأولى اذا كانت واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد على المفرد ، وكان وجه الحاجة الى الواو ظاهرا ، والاشراك بها فى الحكم موجودا .

فاذا قلت : رأيت عالما علمه غزير وخلقه حسن.كنت قد أشركت الجملة الثانية فى حكم الأولى ، وذلك الحكم كونها فى محل نصب صفة للنكرة المنصوبة ، ونظائر هذا ــ كما يقول عبد القاهر ــ كثير والأمر فيه سهل (٥٦) .

غير أنه يشترط فى كون العطف هنا مقبولا وجود الجهة الجامعة . كقوله تعالى « والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » فقد حسن العطف لاتحاد المسند اليه ، والمطابقة بين القبض والبسط .

ومنه قول الشاعر :

انا نعف فلا نريب حليفنا

ونكف شح نفوسنا فى المطمع

فقد أراد الشاعر أن يجمع لقومه الصفتين معا فعطف الثانية على الأولى والجهة الجامعة هى التناسب بين الصفتين الى جانب اتحاد المسند اليه .

وانما اشترط وجود الجهة الجامعة بين المعطوف والمعطوف عليه هنا ، ولم يكتف بالقصد الى التشريك فى الحكم الاعرابى لأنه كعطف المفرد على المفرد ، وشرط كون عطفه مقبولا أن يكونن بين المعطوفين جهة جامعة ، بل ان وجود الجهة الجامعة شرط فى العطف على الاطلاق ، لئلا

---

(٥٦) انظر دلائل الاعجاز ص ١٧١ .

يكون الجمع بين المعطوفين كالجمع بين الضب والنون كما يقولون • ولهذا صح قولك ، زيد كاتب وشاعر ، بخلاف زيد كاتب ومعط(٥٧) •

ولهذا أيضا عيب على الكميت قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة
وان تكامل فيها الأنس والشنب

لأنه لم يجمع الشيء مع نظيره • ولهذا قال له نصيب : باعدت أين الأنس من الشنب ؟

كما عيب على أبى تمام قوله :

لا والذى هو عالم أن النوى
صبر وأن أبا الحسين كريم

اذ لا مناسبة بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين ، ولا تعلق لأحدهما بالآخر •• وقد دافع البعض عن أبى تمام • فذكروا أن بين الأمرين جهة جامعة هى ما بينهما من شبه التضاد لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم ، ولأن كرم أبى الحسين حلو ، ويدفع بسببه ألم احتياج المسائل ، والصبر مر ، ويدفع به بعض الآلام • وقيل بينهما تناسب ، لأن كلا دواء ، فالصبر دواء العليل ، والكرم دواء الفقير ، وأرانى أميل الى صواب هذا الدفاع وصحته ، وان كان ابن يعقوب والدسوقى يريان ذلك تعسفا وتكلفا ! ولا أدرى لم قالا ذلك وقد تعسفا وتكلفا فى أمور البلاغة بما هو أكثر من ذلك وأبعد •

وقد وقع كثير من الشعراء المشاهير فى مثل ذلك الخطأ • ومنه قول أبى نواس فى وصف الديك :

---

(٥٧) انظر المطول ص ٢٤٧ •

له اعتدال وانتصـــاب قد
وجلده يشـــبه وشى البرد
كأنهـــا الهداب فى الفرند
محدودب الظهر كريم الجد

فانه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد ، وهذا لا ينـــاسب ذاك ، وكان ينبغى أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويناسبه •

ومنه أيضا قوله :

وقـــد حلفت يمينـــا
مبـــرورة لا تكـــذب
برب زمـــزم والحو
ض والصفا والمحصب

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب ، وانما الحوض يذكر مع الصراط والميزان ، وما جرى مجراهما(٥٩) •

وقد ذكر الدكتور محمد أبو موسى أن سبب وقـــوع الشعراء فى ذلك يرجع عند التحقيق الى انقطاع أو فتور يعتريـــان النفس فى وقت معالجة القول ، فاذا أحاط بالنفس ما هى فيه من تفكير ومعاناة ، وسيطر الشاعر أو الكاتب على خلجاته وخيالاته وهواجسه لا يقع فى كلامه والحال كذلك لفظ يتنافر مع سابقه ، أو يندو به مكانه ، وانما ترى ألفاظا تتحدر متجانسة ، تجانس الفكر والحس ، منصبغة بصبغة واحدة هى صـــبغة قلبه فى حال معاناته ، فاذا رأيت فى الكلام لفظا غريبا كان ذلك مظهرا من

---

(٥٨) انظر مواهب الفتاح وحاشية الدسوقى ص ١١ ، ١٢ جـ ٣ شروح التلخيص •

(٥٩) انظر المثل السائر جـ ٣ ص ١٥٥ •

مظاهر انتشار الحس ، وعدم السيطرة على الحالة والفكرة ، وهذا فتور وتخاذل وانقطاع •• والفضيلة والعيب هنا يتصلان بالموهبة ومدى سطوتها واقتدارها وتمكنها (٦٠) •

ومثل الجمل التى لها حكم اعرابى الجمل التى لها حكم غير اعرابى فاننا نعطف الثانية على الأولى اذا قصدنا ادخال الثانية فى الحكم الذى قيدت به الأولى • مثل قولك : اذا قرىء القرآن فى البيت خرجت منه الشياطين ، فان جملة خرجت الشياطين مقيدة بالشرط « اذا » فاذا جاءت بعدها جملة أخرى وأردنا اشراكها فى ذلك القيد عطفت عليها • مثل : اذا قرىء القرآن فى البيت خرجت منه الشياطين ودخلت الملائكة ، ويشترط فى هذه الحالة أيضا وجود الجهة الجامعة

فاذا لم تكن هناك جهة جامعة ، فلا يجوز العطف حتى وان قصد التشريك فى القيد • فلا تقول مثلا : اذا جاء عمرو أكرمته وأكل الأسد فريسته • اذ لا جامع ولا علاقة بين اكرامك لعمرو وبين أكل الأسد لفريسته •• وقد أجاز البعض ذلك وجعل قصد التشريك فى الحكم وعدمه كافيا لجواز العطف بصرف النظر عن الجهة الجامعة •

أما اذا لم يقصد التشريك فى القيد ، بأن تكون الجملة الأولى مقيدة بقيد لم يقصد اعطاؤه للثانية تعين الفصل • ومن ذلك قول الله تعالى « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فقد فصلت جملة « الله يستهزىء بهم » ولم تعطف على جملة « قالوا » لئلا تقيد بقيدها ، لأن جملة « قالوا انا معكم » مقيدة بزمن الخلو الى شياطينهم ، فى حين أن استهزاء الله بهم مطلق مستمر غير مقيد بزمن •• فعطف جملة « الله يستهزىء بهم » على جملة « قالوا » يجعلها مشاركة لها فى قيدها ، وهو

---

(٦٠) دلالات التراكيب ص ٢٩١ ، ٢٩٢ •

قوله تعالى « واذا خلوا الى شياطينهم ، ومشاركتها لها فى هذا القيد يفسد المعنى لأن استهزاء الله بهم كما ذكرنا مطلق مستمر غير مقيد بقيد ..

كما لم تعطف جملة « الله يستهزىء بهم » على جملة « انا معكم» حتى لا تشاركها فى حكمها الاعرابى ، فتكون من المحكى عن المنافقين ، وليس الأمر كذلك .

أما جملة « ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فقد عطفت على جملة « يستهزىء بهم » للقصد الى اشراكها معها فى الحكم الذى هو الخبرية عن لفظ الجلالة .. فهو سبحانه يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون،والجامع بين الجملتين تناسبهما وتشاكلهما الى جانب صدورهما من مصدر واحد .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : «واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون » .

فقوله « ألا انهم هم المفسدون » جملة جاءت بعد جملة لها حكم غير اعرابى ، وهى جملة « قالوا انما نحن مصلحون » فهى مقيدة بالشرط « اذا » ومن هنا امتنع عطفها عليها حتى لا تشاركها فى القيد ، كما لا يصح عطفها على جملة « انما نحن مصلحون » الواقعة مفعولا لقالوا حتى لا تشاركها فى الحكم الاعرابى ، فتكون من مقول المنافقين وليس الأمر كذلك ، فكان الفصل لبطلان الاشتراك فى القيد أو الحكم الاعرابى.

هذا وفى تلك الآيات كلام آخر سوف نعرض له فى موطنه من هذا البحث ان شاء الله .

على أن الدكتور محمد أبو موسى قد ذكر أن الجملة التى لها محل من الاعراب ويراد تشريك غيرها معها فى الحكم قد تشترك معها وهى غير

معطوفة ، وأن قولهم : ان أردت التشريك عطفت ، لا يفهم منه لزوم العطف فى هذا الحالة • ومثل لذلك بقول الله تعالى :

« الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » • الجملتان الأخيرتان وقعتا خبرا فهما تشاركان الأولى فى حكمها ، فهى مع ضمائرها أخبار مترادفة ، واخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : فلان أغناك بعد فقر • أعزك بعد ذل • كثرك بعد قلة فما تنكر من احسانه ؟ (٦١) •

وقد ذكر القاضى أبو السعود أن الجمل الثلاث أخبار مترادفة واخلاء الأخيرتين من العاطف لورودها على منهاج التعديد(٦٢) •

ولما كانت هذه السورة لتعداد نعم الله التى أنعم بها على عباده ، قدم النعمة التى هى أجلها قدرا ، وأكثرها نفعا وأتمها فائدة ، وأعظمها عائدة ، وهى نعمة تعظيم القرآن ، فانها مدار سعادة الدارين ، وعماد الأمرين ، ثم امتن بعد ذلك بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ، ومرجع جميع الأشياء فقال « خلق الانسان » ثم امتن ثالثا بتعليمه البيان الذى يكون به التفاهم وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد لأنه لا يمكن ابراز ما فى الضمائر ولا اظهار ما يدور فى الخلد الا به (٦٣) •

ولعل ورود تلك الجمل غير معطوفة يقوى وجهة النظر التى ذكرناها والتى ترى أن قواعد هذا الباب والمقاييس التى وضعها البلاغيون له ، لا تثبت ولا تطرد فى جميع المقامات ، وانما السياق والغرض المقصود هما اللذان يحددان مجىء الواو من عدمه ، بدليل أن مايقرب مما سبق قد

---

(٦١) دلالات التراكيب ص ٣٠٥ •
(٦٢) تفسير أبى السعود جـ ٨ ص ١٧٦ •
(٦٣) انظر فتح القدير جـ ٥ ص ١٣١ •

جاء معطوفا بالواو ، وذلك فى قوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى »(*) .

هذا فى الجمل التى لها حكم سواء أكان اعرابيا أم غير اعرابى .

أما الجمل التى ليس لها حكم على الاطلاق . فان أمر العطف فيها يدق ويلطف كما يقول عبد القاهر وغيره من البلاغيين .

وذلك مثل أن تقول : زيد قائم وعمرو قاعد . لا سبيل لنا . كما يقول الامام . الى أن ندعى أن الواو اشركت الثانية فى اعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه . واذا كان الأمر كذلك ، فينبغى أن نعلم المطلوب من هذا العطف ، والمغزى منه ، ولم لم يستو الحال بين أن نعطف وبين أن ندع ، العطف ، فنقول : زيد قائم عمرو قاعد ، بعد أن لا يكون ههنا أمر معقول يؤتى بالعاطف ليشرك بين الأولى والثانية فيه ، وهنا يكون اشكال المسألة(٦٤) .

ولعل عبد القاهر يقصد بقوله : اشكال المسألة ، أن أمر العطف وتركه بين تلك الجمل يحتاج الى مزيد من النظر والتأمل لمعرفة أسبابه وأسراره .

وقد جرى البلاغيون على أن أساس الفصل والوصل بين هذه الجمل يدور وجودا وعدما على وجود الجامع بين الجملتين ، ودرجة الاتصال بينهما ، ونوع هذا الاتصال ، وقد قاسوا الجملة فى ذلك على المفرد ، فكما أن من المفردات ما يصله معناه بالذى قبله فيستغنى بصلة معناه عن رابط يربطه به ، وذلك كالصفة التى لا تحتاج فى اتصالها بالموصوف الى شىء يصلها به ، وكالتأكيد الذى لا يفتقر الى واصل يصله بالمؤكد ..

---

* سورة الأعلى من ١ ـ ٤ .

(٦٤) دلائل الاعجاز ١٧١ ، ١٧٢ .

كذلك يكون فى الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتى قبلها ، فتستغنى بهذا الاتصال الذاتى عن حرف عطف يربطها بما سبقها ، وهى كل جملة كانت مؤكدة للتى قبلها ومبينة لها ، وكانت اذا حصلت لم تكن شيئا سواها ، كما لا تكون الصفة غير الموصوف ، والتأكيد غير المؤكد (٦٥) .

وذلك أنه لا معنى لدخول العاطف حينئذ ، لأن الشىء لا يعطف على نفسه ، وانما يعطف على ما يغايره ويناسبه .

وقد ذكر الخطيب القزوينى أن الجملة اذا نزلت مما قبلها منزلة التوكيد ، أو البدل ، أو البيان فصلت عنها ...

وينبغى أن ننبه الى أن كلمة الفصل هنا لا تعنى أبدا انعدام الوشيجة ، أو الصلة بين الجملتين ، لأن الاتصال بين جزاء الكلام أمر لا غنى عنه فى الأساليب البليغة ، وانما تعنى أن بين الجملتين اتصالا داخليا ذاتيا يمنع من دخول الواو كوسيط بينهما ، لأنها لا تدخل بين الأمرين الا اذا كان بينهما مغايرة من وجه ومناسبة من وجه آخر .. فالواو فى عالم المعانى كالوسيط فى عالم البشر ، فاذا تضام الرجلان ، واشتدت الصلة بينهما فانهما لا يحتاجان الى وسيط يصل بينهما ، واذا اختلف الرجلان غاية الاختلاف بحيث لا يرجى اتصالهما كان وجود الوسيط عبثا .

وانما يكون وجود الوسيط فى الحالة التى بين بين .. هذا واضح فى أحوال الناس ، وهو كذلك فى كلامهم (٦٦) .

ومن هنا أطلق البلاغيون على الفصل بين الجملتين للتأكيد أو البيان أو البدل اسم « كمال الاتصال » . ومعنى تلك التسمية أن الجملة

---

(٦٥) انظر دلائل الاعجاز ص ١٧٥ .

(٦٦) انظر دلالات التراكيب ٣١٢ .

اذا كانت بتلك المثابة مما قبلها ، كان اتصالهما اتصالا قويا وكاملا يمنع دخول العاطف •

ومن الأمثلة التى ذكرها البلاغيون لفصل الجمل للتأكيد قول الحق سبحانه وتعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٦٧) فجملة « ذلك الكتاب » قد بنيت من مبتدأ هو اسم الاشارة الدال على البعد، والاخبار عنه بالكتاب المعرف بالألف واللام •

فدل بذلك على أنه الكتاب الكامل الواضح المبين الذى لا يخفى على ذى بصر وبصيرة وكماله ووضوحه فى مجاله الذى نزل من أجله ، وهو الهداية والاعجاز ••• فاسم الاشارة الدال على البعد آذن بعلو شـــأنه ، وكونه فى الغـــاية القصوى من الفضـــل والشرف ، وتعريف « الكتاب » بالألف واللام ، للدلالة على أنه الكامل كمالا لا يبلغ كنهه فى الاتصاف بالاعجاز والهداية •• وقوله « لا ريب فيه » نفى لأن يكون القرآن مظنة للريب أو أهلا لأن يشك فيه،ونفى ذلك يلزم عليه أنه كامل لا نقص فيه ، ومن ثم كانت « لا ريب فيه » تأكيدا « لذلك الكتاب » لاتحادهما فى الدلالة على المعنى المراد ، فلم تتوسط الواو بينهما •

كما لم تدخل الواو على قوله تعالى « هدى للمتقين » لأنها تأكيد آخر أقوى وأوضح ، لأن الاخبار بالمصدر « هدى » دل عى أنه بالغ درجة الكمال فى الهداية ، والغاية فى ارشاد الناس ، فهو عين الهدى فى الارشاد الى الدين الحق ، وحسن تدبير الأمور ، وفضائل الأخـــلاق ، والعلم النافع المفيد •

والمراد بالمتقين • المؤمنون الذين آمنـــوا بالله ورسوله ، وتلقوا القرآن بقوة وعزم ، وعملوا بما جاء فيه •

---

(٦٧) سورة البقرة آية ٢ •

وبذلك تكون جملة « هدى للمتقين » متفقة فى المفهوم مع جملة : « ذلك الكتاب » • وهى نقطة التقاء بينهما أقرب وأوضح ، فكان التأكيد بها أقوى من التأكيد بجملة « لا ريب فيه » ومن ثم قدم « لا ريب فيه » للتدرج من القوى الى الأقوى (٦٨) •

وقد ذهب بعض العلماء على أن قوله «لاريب فيه» خبر عن«ذلك» و « الكتاب » بدل أو عطف بيان ، كما تقول : ذلك الرجل مجتهد • فيكون قوله « هدى للمتقين » تأكيدا لقوله « ذلك الكتاب لا ريب فيه » وذهب آخرون الى غير ذلك (٦٩) •

ومن أمثلة الفصل للتأكيد أيضا قوله تعالى « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم »(٧٠) •

فقد فصلت جملة « لا يؤمنون » عن قوله « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » لأنها بمنزلة التأكيد والتقرير لمعناها •

وقد جوز صاحب الكشاف أن تكون جملة « لا يؤمنون » خبرا لان ، وما بينهما اعتراض ، ولم يرتض ذلك السيد الشريف ، ورجح أنها تأكيد أو بيان لأن محل الاخبار ليس قوله « لا يؤمنون » وانما القصد أن يخبر

---

(٦٨) قال سعد الدين التفتازانى : ان وزان « لا ريب فيه » وزان « نفسه فى قولك : جاء زيد نفسه » وهو التأكيد المعنوى ،ووزان « هدى للمتقين » وزان « زيد » الثانى فى قولك « جاءنى زيد زيد » وهو التأكيد اللفظى • فجعل الأولى بمنزلة التوكيد المعنوى والثانية بمنزلة التوكيد اللفظى ، والثانى أقوى من الأول • انظر المطول ص ٢٥٤ •

(٦٩) انظر تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ومواهب الفتاح ج ٣ ص ٣٦ •

(٧٠) سورة البقرة ٦ ، ٧ •

عنهم باستواء الانذار وعدمه عندهم فبالحرى أن تكون عمدة لا معترضة (٧١) .

كما فصلت جملة « ختم الله على قلوبهم » لأنها تأكيد ثان لجملة « سواء عليهم .. » وذلك أن قوله « سواء عليهم .. » يفيد أن الانذار وعدمه مستويان عندهم فى عدم تأثرهم بهذا القرآن البالغ الغاية فى الهداية والوضوح والاعجاز ، ويلزم من عدم التأثر بالانذار ، ومساواته بالعدم أنهم لن يؤمنوا ، فتكون جملة « لا يؤمنون » مؤكدة للمعنى المقصود من جملة « سواء عليهم » .

ومن كان حاله اذا أنذر مثل حاله اذا لم ينذر،كانت وسائل الادراك والنظر والتأثر عنده معطلة ، وذلك هو معنى قوله : « ختم الله على قلوبهم ... » ومن ثم كانت تأكيدا ثانيا أقوى وأشد من الأول .. على أن من العلماء من ذكر أن الفصل فى قوله : « ختم الله على قلوبهم » ليس لكمال الاتصال الناشىء عن التأكيد ، وانما هو للاستئناف البيانى الذى سنبينه فيما بعد .

وينبغى أن نشير هنا الى أن جملة « سواء عليهم .. » لها محل من الاعراب لأنها خبر «ان»،والمفروض أن كلام البلاغيين هنا فى الجمل التى لا محل لها من الاعراب وهذا ما يؤكد أن مصطلحاب البلاغيين فى هذا الباب لا تنضبط انضباطا كاملا ولله در السبكى ــ فقد أحسن حين قال «والجمل التى لا محل لها وغيرها سيان فى اقتضاء العطف وعدمه»(٧٢). ومن أمثله الفصل للتأكيد أيضا قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله »(٧٣) .

---

(٧١) انظر الكشاف وحاشية السيد جـ ١ ص ١٥٥ .
(٧٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ ٣ ص ٥ .
(٧٣) سورة البقرة ٨ ، ٩ .

قال عبد القاهر : انما قال « يخادعون الله » ، ولم يقل ويخادعون لأن هذه المخادعة ليست شيئا غير قولهم : « آمنا » من غير أن يكونوا مؤمنين ، فهو اذن كلام أكد به كلام آخر هو فى معناه وليس شيئا سواه »(٧٤) .

ومنه أيضا قوله تعالى : « واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا »(٧٥) .

فقد قصدت الآية الكريمة الى بيان موقف الكافر من القرآن حين يتلى عليه ، وأنه لا يتأثر به البتة ، فشبهت حاله وهو يسمع بحاله حين لم يسمع فى عدم التأثر والفائدة ، ثم أكد ذلك مرة ثانية حين شبهه بمن فى أذنيه وقر ، والمقصود من التشبيه الثانى هو نفس المقصود من التشبيه الأول ، الا أن الثانى أشد وأقوى فى بيان اعراضه وجحوده ، لأنه شبه بمن تعطلت عنده آلة السمع ، فأصبح لا أمل فى هدايته ، ولا رجاء فى سماعه .

يقول الامام عبد القاهر : لا شبهة فى أن التشبيه بمن فى أذنيه وقر أبلغ وآكد فى جعله كذلك ، من حيث كان من لا يصح منه السمع وان أراد ذلك ، أبعد من أن يكون لتلاوة ما يتلى عليه فائدة ، من الذى يصح منه السمع الا أنه لا يسمع اما اتفاقا ، واما قصدا الى أن لا يسمع فاعرفه ، وأحسن تدبره »(٧٦) فجملة « كأن لم يسمعها » مؤكدة لما قبلها ، وجملة « كأن فى أذنيه وقرا » تأكيد ثان أقوى وأشد ، وذاك هو سر تجريدهما من العاطف .

أما لماذا لم يتوسط العاطف بين جملتى التأكيد ؟ فذلك لأن جملة

(٧٤) دلائل الاعجاز ص ١٧٥ .
(٧٥) سورة لقمان الآية ٧ .
(٧٦) دلائل الاعجاز ص ١٧٦ .

التأكيد الأولى لما كانت تأكيدا لما قبلها وتابعة لها صارت كهى فلما امتنع العطف على ما قبلها امتنع العطف عليها لشدة ارتباطها بما قبلها، فالعطف عليها كالعطف على ما قبلها(٧٧) .

وفى قوله تعالى : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزءون »(٧٨) .

فصلت جملة « انما نحن مستهزءون » عن جملة « انا معكم » وذلك لأن معنى قولهم « نا معكم » انهم ثابتون على دينهم،ولم يتبعوا دين الاسلام ويلزم من هذا انهم حين قالوا للمسلمين « آمنا » كانوا يستهزءون ، فكأن قولهم « انما نحن مستهزءون » بمنزلة التأكيد لذلك ، لأن المستهزىء بالشىء المستخف به منكر له غير معتد به ، ودفع نقيض الشىء تأكيد لثباته »(٧٩) .

فلا فرق بين أن يقولوا : انا لم نقل ما قلناه من انا آمنا الا استهزاء ، وبين أن يقولوا : انا لم نخرج من دينكم،وانا معكم . بل هما فى حكم الشىء الواحد فصار كأنهم قالوا : انا معكم لم نفارقكم »(٨٠) .

وقد ذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، عليه رحمة الله ، أن الاستشهاد بذلك لما لا محل له من الاعراب منظور فيه الى حاله قبل الحكاية ، والا فانه فى محل نصب بقوله « قالوا » .

وذكر الدكتور محمد أبو موسى « أن الأصول التى تطبق فى الجمل

---

(٧٧) انظر حاشية الدسوقى . شروح التلخيص جـ ٣ ص ٣٨ .
(٧٨) ١٤ سورة البقرة .
(٧٩) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٧٢ .
(٨٠) انظر دلائل الاعجاز ص ١٧٦ .

التى لا محل لها من الاعراب تطبق أيضا فى الجمل التى لها محل من الاعراب ومن الشواهد التى ذكرها لذلك قول جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله انسانا

فقوله : « يصر عن ذا اللب » فصل عما قبله لأنه توكيد له من حيث المعنى ، وهو جملة لها محل من الاعراب »(٨١) .

وبهذا يظهر لنا أن أساليب الفصل للتأكيد كثيرة ومتعددة ، وانها تجىء فى الجمل التى لا محل لها من الاعراب ، والتى لها محل من الاعراب ... غير أن ههنا أمرا ينبغى الاشارة اليه ، وهو أن الجملة قد تكون منزلة منزلة التوكيد لما قبلها ، ومع ذلك يتوسط العاطف بينهما، وذلك لأسباب واعتبارات تتعلق بقصد المتكلم أحيانا ، وبدلالة الحرف نفسه أحيانا أخرى . ومن ذلك ما نراه فى قول الشاعر :

واذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشترى

لأنه اذا كان ما سوى الممدوح بائعا فانه يلزم عليه أن يكون المشترى هو الممدوح،فجاءت جملة « أنت المشترى » تأكيدا لهذا اللازم وكان المفروض أن لا تقع الواو بينهما طبقا لقواعد البلاغيين فى هذا الباب . الا أن ذلك قد خولف لغرض قصده الشاعر ، وهدف اليه . وهو ابراز ما بين الأمرين من مغايرة ... وذلك أن جانب الاتصال الذاتى بين الجملتين قد يكون موجودا وقويا الا أن فيه وجها من وجوه المغايرة ، فاذا جاءت احدى الجملتين عقب الأخرى بغير واو كان القصد الى ابراز جانب الاتصال الذاتى .. أما حين تأتى الواو ، فان

---

(٨١) انظر دلالات التراكيب ص ٣٠٦ .

قصد المتكلم وهمه الأول يكون منصرفا الى اظهار جانب المغايرة وتقويته ، وهذا ما عمد اليه الشاعر فى البيت السابق ، حيث قصد الى ابراز جانب المغايرة بين الممدوح وسواه ، واظهار أن هناك فرقا بينه وبين غيره من بنى جنسه ، وأن الناس لو اجتمعوا على التخلى عن المكارم لكان هو ملاذها ومصدرها ، وكل ذلك أبرزته الواو التى توسطت بين الجملتين ... فلم تأت الواو هنا ـ فى المقام الأول ـ لتصل وتجمع بين شيئين ، وانما لتبرز ما بينهما من مغايرة .. ومن هنا فان هذه الأسرار لا تراعى فى الكلام الا ممن بلغوا فى فن البلاغة شأوا بعيدا ، وغاية عظيمة ، وعرفوا خفايا الأساليب ، ودقائق التراكيب ، فهم لا يأتون بالحرف عفو الخاطر ، ولا يلقون الكلام حيثما اتفق .. ومثل هذا الكلام هو الذى يجب أن ننظر فى أعطافه ، وأن نعلل لأسباب وجود الحرف فيه أو تركه .

ومن ذلك قول الله تعالى حكاية عن مؤمن قوم فرعون : « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار » .

فان كون الحياة الدنيا متعة زائلة ، ولذة فانية يلزم منه أن مقابلها وهو الحياة الآخرة ، دار قرار واستمرار دائم لا ينقطع ، فقوله « وان الآخرة هى دار القرار » بمثابة التأكيد لهذا اللازم المفهوم من معنى المجلة الأولى مما يقتضى ترك الواو ، ولكن جىء بها ـ والله أعلم ـ للقصد الى ابراز جانب المغايرة بين الحياتين ، وبيان الفرق بين هذه وتلك .

وعلى ذلك أيضا جاء قول الله تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا »(٨٢) .

فالتوالى والاعراض عن دين الله تعالى وكتابه الكريم يعنى

---

(٨٢) ٢٩ سورة النجم .

الانصراف عما عند الله تعالى من الثواب والخير ، الى شهوات الدنيا وما فيها من لهو وعبث ، وهذا المفهوم قد أكدته الجملة الثانية ، حيث حصرت هم المعرض عن ذكر الله فى أمور الدنيا فهو لا يفكر الا فى لذاتها وشهواتها .

وقد توسطت الواو بين الجملتين لأن القصد فى الآية ، والله أعلم — اظهار جانب المغايرة بين موقف هؤلاء الكافرين من الدين ، وموقفهم من الدنيا ، فهم معرضون عن الأول نافرون منه كارهون له ، فى حين أنهم يقبلون على الثانية محبين لها راغبين فيها .

ومنه قوله تعالى : « واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا»(٨٣) فقد عطف قوله « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » على سابقه ، وان كان الميثاق هنا هو الميثاق هناك ، والأخذ هنا هو الأخذ هناك ، لأنه لما وصف بالغلظ صار كأنه ميثاق آخر ، وفى ذلك تفخيم لشأن الميثاق وتنويه به ، وعلى طريقته قوله تعالى « ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ »(٨٤) فقد عطف ونجيناهم على نجينا هودا،وان كانت النجاة واحدة،وذلك لأنه لما ذكر ما نجاهم منه كانت النجاة الثانية كأنها نجاة مختلفة عن الأولى فعطفها عليها تمييزا لها وتفخيما لشأنها »(٨٥) .

وهذا جار على الراجح من آراء المفسرين من أن التنجية الثانية كانت من العذاب الذى لحق الكافرين ، وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم ارباً اربا .. أما على الرأى القائل بأن التنجية الثانية هى من عذاب الآخرة ، ولا عذاب أغلظ منه ،

---

(٨٣) آية ٧ سورة الأحزاب .

(٨٤) سورة هود ٥٨ .

(٨٥) دلالات التراكيب ص ٣٢٤ .

فان النتيجة الثانية لا تكون توكيدا للأولى بل تكون مغايرة لها،وتكون الواو قد جمعت بين معنيين متغايرين بينهما مناسبة كما هو الأصل فيها.

وقد ذكر القاضى أبو السعود ، أن التنجية الثانية على هذا الرأى لا تكون مقيدة بمجيء الأمر ، وانما جيء بها تكملة للنعمة ، وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم ، فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ »(٨٦) .

ومما جاء من ذلك أيضا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله » ١٨ سورة الحشر . التقوى الثانية هى التقوى الأولى وقد زادت الواو التأكيد قوة وقيل التقوى الأولى مصروفة لشيء غير الذى صرفت اليه الثانية.. وقوله تعالى « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » ٤٢ آل عمران وقوله : « فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم » ١٩٨ البقرة . وقيل : هما اصطفاءان وذكران ، ورجح السبكى ذلك فى الذكر لأنه محل طلب فيه تكرير الذكر(*) .

أما غير الواو من حروف العطف فيتوسط كثيرا بين الجملتين اللتين تؤكد احداهما الأخرى ، وذلك لمعان واعتبارات تتعلق ـ كما قلنا ـ بدلالة الحرف ومعناه ، والأغراض والمعانى التى تناط بالتراكيب ... ومن ذلك قوله تعالى : « كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون »(٨٧) وقوله « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون »(٨٨) وقوله : « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى »(٨٩) وقوله : « وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين »(٩٠) .

(*) انظر عروس الأفراح ج ٣ ص ٨٨ .

(٨٦) تفسير أبى السعود ج٤ص٢١٩ انظر عروس الأفراح ص٨٨ج٣

(٨٧) سورة النبأ ٤ ، ٥ .

(٨٨) سورة التكاثر ٣ ، ٤ .

(٨٩) سورة القيامة ٣٤ ، ٣٥ .

(٩٠) سورة الانفطار ١٧ ، ١٨ .

فالتكرير فى قــوله « كلا سيعلمون » و « كلا ســوف تعلمون » للمبالغة فى التأكيد والتشديد فى الانذار والوعيــد ، وتوسطت « ثم » للدلالة على أن الوعيد الثانى أشد وأعنف •

وفى قوله « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » حدث التكرير أربع مرات توسطت الفاء بين كل اثنين ، وتوسطت « ثم » بين المجموعتين، ولعل سر ذلك ــ والله أعلم ــ أن الأولين تهديد للكافر بتوالى المكاره والمصائب فى دنياه فكانت الفاء ، وما بعدهما تهديد بالمصائب الشديدة فى أخراه فكانت الفاء أيضا وقد توسطت « ثم » بينهما للاشــعار بأن مصائب الآخرة أشد وأفظع من مصائب الدنيا ••• ذكر أن هذه الآيات نزلت فى أبى جهل ، وكان أشد الكفار كراهية للاسلام ، ونبى الاسلام وقد صدق فيه قول الحق سبحانه وتعالى فتوالت عليه المكاره فى الدنيا بدءا من فشله فى محاولة قتل النبى صلى الله عليــه وسلم ثم عجــزه وخيبة أمله فى محاولة وقف انتشار الاسلام ، وانتهاء بقتلــه واذلاله يوم بدر ، وسوف تتوالى عليه المصائب الشديدة فى الآخرة •

وسر التعبير بلفظ « أولى » دون الويل هو الايذان بأنه الأولى والأحق بهذا العذاب(٩١) •

وفى قوله « وما أدراك ما يوم ••• » كرر تعظيما وتأكيدا لقدر هذا اليوم ، ودل بدخول « ثم » على جملــة التأكيد أن فخامة شأنه وعظيم قدره أمر بعيد لا يحيط به الوصف ، ولا تقدر العقــول على ادراك كنهه وحقيقته •

الصورة الثانية ــ من صور كمال الاتصال بين الجملتين • هى أن تكون الجملة الثانية بيانا للأولى ، بمعنى أنها تنزل منها منزلة عطف

---

(٩١) انظر فتح القدير المجلد الخامس ص ٣٤٢ •

البيان من متبوعه فى افادة الايضاح • وذلك اذا كان فى الجملة الأولى نوع خفاء يقتضى المقام ازالته(٩٢) •

ومن الأمثلة التى ذكرها البلاغيون لذلك قول الحق سبحانه وتعالى « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »(٩٣) •

فجملة « فوسوس اليه الشيطان » فيها نوع خفاء ، ولا تكشف عما دار بين آدم والشيطان من حوار ، والمقام يقتضى الكشف والبيان لهذا الحوار وتلك الوسوسة ، لنأخذ من ذلك درسا وعبرة وننتبه الى مداخل الشيطان وطريقته فى لاغواء والاغراء ، ولهذا جاءت جملة « قال يا آدم ••• » كاشفة وموضحة ومبينة لتلك الوسوسة ، ففصلت عما قبلها ، ولم تعطف عليها كما لا يعطف البيان على متبوعه •

وقد ذكر القاضى أبو السعود فى تفسيره ، والشوكانى فى « فتح القدير » ، أن الفصل هنا للبدل ، أو الاستئناف بتقدير سؤال ، كأنه قيل : « فماذا قال له فى وسوسته ؟ »(٩٤) •

ومن الفصل للبيان قوله تعالى « وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها »(٩٥) •

العبرة العجب والشىء الذى يتعظ به الانسان ويعتبر ، ليستدل به على غيره ، وقد بينت هنا بقوله تعالى « نسقيكم ••• » فهو بيان لما أبهم أولا من العبرة ، ولهذا لم تتوسط أداة الربط بينهما • وجعلها

---

(٩٢) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٧٦ •

(٩٣) سورة طه ١٢٠ •

(٩٤) انظر تفسير أبى السعود المجلد السادس ص ٤٧ ، وفتح القدير مجلد ٣ ص ٣٩٠ •

(٩٥) المؤمنون ٢١ •

الزمخشرى مستأنفة على تقدير سؤال ، كأنه قيل : كيف العبرة ؟ فقيل نسقيكم(٩٦) .

وعلى ذلك أيضا قوله تعالى : « وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين »(٩٧) . فقوله « ذلك الأمر » مبهم يفسره قوله « ان دابر هؤلاء ... » وفى ابهامه ثم تفسيره تفخيم للأمر ، وتعظيم له »(٩٨) .

ومنه قوله تعالى : « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب »(٩٩) .

فقد أبهم « سبيل الرشاد » ثم فسره بعد ذلك بقوله — « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ... » فبدا بذم الدنيا وتصغير شأنها ثم ثنى بتعظيم الآخرة ورفع شأنها ، ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل ، ليرغبهم فى الطاعة ويرهبهم من المعصية .

فكأنه قال : سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا والرغبة فى الآخرة والامتناع عن الأعمال السيئة ، والمسارعة الى الصالحة(١٠٠) .

وقد تركت الواو فى قوله : « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا ... » لأنه بيان لسبيل الرشاد ، وذكرت فى قوله « وان الآخرة ... » لابراز جانب المباينة والمغايرة بين الدنيا والاخرة . ثم تركت فى

---

(٩٦) انظر الشاف جـ ٢ ص ٤١٦ .
(٩٧) سورة الحجر ٦٦ .
(٩٨) الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٥ .
(٩٩) الآيات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ سورة غافر .
(١٠٠) انظر المثل السائر جـ ٢ ص ٢٠٤ .

قوله « من عمل سيئة ... » لأنها من جملة البيان ، ثم ذكرت فى قوله « ومن عمل صالحا ... » لما بين العمل الصالح والعمل السىء من المباينة والمناسبة فاحتاجت الى الواو لابراز ذلك واظهاره .

ومن الفصل للبيان قوله تعالى فى شأن سيدنا موسى عليه السلام : « اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم »(١٠١) فأبهم ما أوحى به أولا تهويلا له وتفخيما لشأنه ، ثم فسر وبين بقوله « أن أقذفيه فى التابوت ... » ليكون أقر عند النفس ، وأثبت فى الذهن .

هذا وباب الايضاح بعد الابهام معروف عند البلاغيين ، وهم يذكرونه فى باب الاطناب ، وأمثلته كثيرة ومتنوعة ... وقد ذكروا أن من فوائده : أنه يريك المعنى فى صورتين مختلفتين ، فيتمكن فى النفس فضل تمكن . فان المعنى اذا ألقى على سبيل الاجمال والابهام تشوقت نفس السامع الى معرفته على سبيل التفصيل والايضاح ، فتتوجه الى ما يرد بعد ذلك ، فاذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم »(١٠٢) .

على أنى أود ان أنبه هنا الى ان الجملة قد تكون بيانا لما قبلها ، فلا تسبق بالواو على ما هو الأصل عند البلاغيين ، ثم تأتى هذه الجملة نفسها فى سياق آخر فتسبق بالواو ... وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم فى آيتين متشابهتين تركت الواو فى احداهما وذكرت فى الأخرى .

الأولى قول الحق سبحانه وتعالى « واذا أنجيناكم من آل فرعون

---

(١٠١) ٣٨ ، ٣٩ سورة طه .

(١٠٢) بغية الايضاح جـ ٢ ص ١٣٣ .

يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »(١٠٣) .

الثانية قوله تعالى : « واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »(١٠٤) فاذا نظرنا فى الآيتين رأينا أن جملة « يذبحون أبناءكم » قد أخليت من الواو فى سورة البقرة ، وسبقت بالواو فى سورة ابراهيم ، وقد قال صاحب الكشاف فى تفسير ذلك : « حيث طرحت الواو يكون تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبتت الواو جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة ، كأنه جنس آخر مغاير لاسامتهم العذاب »(١٠٥) .

وذكر الاسكافى : انه اذا جعل « يذبحون » بدلا من قوله « يسومونكم سوء العذاب » ، لم يحتج الى الواو ، واذا جعل « يسومونكم سوء العذاب » عبارة عن ضروب من المكروه هى غير ذبح الأبناء ، لم يكن الثانى الا بالواو ، وقد لاحظ أن سياق الآيتين مختلف ، لأن الأولى أخبر فيها الحق سبحانه وتعالى عن نفسه ، بانجائه بنى اسرائيل ، وفى الثانية أخبر عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه كذا بعد أمره تعالى له أن يذكرهم بأيام الله(١٠٦) .فاقتضى هذا التذكير عد المحن عليهم فجعل التذبيح جنسا آخر يربو على جنس أسامة العذاب . وهكذا نرى أن السياق والمقام قد حددا توسط الواو، أو عدم توسطها .

---

(١٠٣) سورة البقرة ٤٩ .

(١٠٤) سورة ابراهيم ٦ .

(١٠٥) انظر الكشاف مجلد ٢ ص ٣٦٨ .

(١٠٦) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٤ دار الآفاق بيروت

فالواو اذن قد تدخل على جملة المبيان لهدف يقصده المتكلم ، وغرض يرمى اليه ، وعلى ذلك جاء قول زهير بن جناب الكلبى :

أبنى ان أهـــلك فانى
قـــد بنيت لكم بنيـــة
وجعلتكم أبنـــاء سادا
ت زنادكـــم وريـــة

قوله : وجعلتكم أبناء سادات•هو فى حقيقته بيان لبنية المجد التى بناها لهم ، ولو أسقطت الواو لا تصل الكلام من ذات نفســه ، ولكان كلاما واحدا تتضام أطرافه من غير ضام ، ولكنه لمـا فصل بالواو آذنت بالمغايرة وأفصحت عن هاجس فى نفس الشاعر ، ذلك هو تمييز المعنى الذى دخلت عليه الواو فى باب السيادة والشرف ، حتى كأنه شىء يتميز عن كل مظاهر الشرف المتضمن فى قوله « بنيت لكم بنية »(١٠٧) •

أما الصورة الثالثة : التى ذكرها البلاغيون لكمال الاتصال بـين الجمل والتى تقتضى ترك العاطف فهى : أن تنزل الجملة الثانيـة من الأولى منزلة البدل من متبوعه •

وقد تحـدث البلاغيون فى تلك الصـورة عن بدل البعض ، وبدل الاشتمال ، أما بدل الكل فقد استغنى عنه بالتأكيد ، لأنه لا ينفصل عنه الا بأن لفظه غير لفظ متبوعه ، وأنه مقصود بالنسبة دون متبوعه بخلاف التأكيد ، وأما بدل الغلط فانه لا يقع فى فصيح الكلام(١٠٨) •

وظاهر كلام الامام عبد القـاهر أنه يقصر كما لالاتصـال على التوكيد والبيـان(١٠٩) •

---

(١٠٧) دلالات التراكيب ص ٣٢٢ ، ٣٢٥ •
(١٠٨) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٧٧ •
(١٠٩) انظر دلائل الاعجاز ص ١٧٥ •

ومن الأمثلة المشهورة التى ذكرت لبدل البعض قول الله تعالى حكاية عن قول هود عليه السلام لقومه : « واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون »(١١٠) • فسيدنا هود عليه السلام أراد أن يدفع قومه الى الايمان بالله وطاعته ، والى خشيته والخوف من عقابه ، فذكرهم بنعمه العظيمة التى تستوجب الشكر والخضوع لصاحب النعم وهو الله سبحانه وتعالى ، وقد استخدم فى بيانه لتلك النعم أسلوب الاجمال ثم التفصيل ليلفت أذهانهم الى التفكير فيها ، وقد استشهد عليهم بعلمهم ، لينفى عن نفسه شبهة الادعاء أو المبالغة أو التزيد ، فهى نعم ظاهرة يعرفونها جيدا ويشاهدونها أمامهم ••• والتعبير بقوله « أمدكم » للدلالة على أنهم فى أشد الحاجة الى تلك النعم ، وأنه لا حياة لهم بدونها •

والشاهد فى الآية الكريمة فى فصل جملة « أمدكم بأنعام وبنين » عما قبلها ، لأنها منزلة منها منزلة بدل البعض من متبوعه ، كما ذكر البلاغيون ••• ذلك أن الأمداد بما ذكر من الأنعام وغيرها بعض مما يعلمون ، وقد دل على نعم الله تفصيلا من غير احالة على علم المخاطبين المعاندين(١١١) •

غير أن كثيرا من العلماء والمفسرين جعل الفصل هنا للبيان والتأكيد أو الاستئناف •• يقول العلامة أبو السعود : « أجملها أولا — اى النعم — ثم فصلها بقوله : « أمدكم بأنعام وبنين » فأعاد الفعل لزيادة التقرير والتمكين ، فان التفصيل بعد الاجمال ، والتفسير بعد الابهام أدخل فى ذلك »(١١٢) •

---

(١١٠) سورة الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ •
(١١١) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٧٤ •
(١١٢) تفسير أبى السعود مجلد ٦ ص ٢٥٧ •

ولا نشك فى أن النكتة التى ذكرها البلاغيون للبيان متوفرة هنا فقوله تعالى : « أمدكم بما تعلمون » جملة مؤدية للغرض الذى سيقت من أجله ، الا أن فيها اجمالا واحالة الى علم الانسان الذى كثيرا ما يغفل أو ينكر ، فجاءت الجملة الثانية ، مفصلة وموضحة ومبينة ، فالأولى أن تكون العلاقة بينهما علاقة بيان وتوضيح ، لا علاقة بدل ومبدل منه •

ومن دقائق النظم الكريم فى تلك الآية ذلك الترتيب الدقيق للنعم المفصلة ، حيث بدأ بالأنعام لما لها من الأهمية العظيمة ، فهى تكفل للانسان ضرورات الحياة ومقوماتها من المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، والانتقال من مكان الى مكان •

قال تعالى : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين »(١١٣) •

ثم ثنى بالبنين لأن بهم عزة الانسان ، وحماية المال وبقاء الذكر ••• قال صاحب الكشاف : فان قلت : لم قرن البنين بالأنعام ؟ قلت : هم الذين يعينونهم على حفظها ، والقيام عليها »(١١٤) ثم هم بعد ذلك ثمرة الزواج الذى هو سكن وراحة ومودة •

ثم ثلث بالجنات ، لأنها الرفاهية والنعيم الحسى والنفسى •••• والانسان اذا تحقق له كل ذلك تطلع الى استمراره ودوامه ونمائه ، فكانت عيون الماء هى رابعة النعم وختامها ، وهى نعمة عظيمة تستمد منها كل النعم بقاءها واستمرارها ••• فلنتأمل دقة الترتيب وعظمة البيان •

---

(١١٣) آية ٨٠ سورة النحل •

(١١٤) الكشاف مجلد ٣ ص ١٢٢ •

ومن أمثلة الفصل للبدل أيضا قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون »(١١٥) .

فالآية الأولى تبين حرص الرجل على هداية قومه ، وحثهم على اتباع المرسلين ، ولهذا قدم قوله « من أقصى المدينة » ليدل على الجهد البالغ الذى بذله الرجل فى المجىء ، وقال « يسعى » ليبين مدى حرصه واهتمامه بنصح قومه وحملهم على اتباع الهدى ، وفى خطاب الرجل لهم بقوله « يا قوم » تأليف لقلوبهم ، واستمالة لها نحو قبول النصيحة ... ثم جاءت الآية الثانية — وهى بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى — لتبين لهم أنهم لو اتبعوا المرسلين فان يخسروا شيئا على الاطلاق ، لأن هؤلاء المرسلين لا يطلبون أجرا لتعليم الناس وارشادهم الى طريق الهداية .

وفى هذا أمن لهم من خسارة الدنيا ، كما أن هؤلاء الرسل مهتدون الى طريق الحق ، ففى الاستجابة لهم عدم خسارة الآخرة أيضا ، فمن اتبعهم كسب دنياه وآخرته ... وهكذا ركزت الآية الثانية على هذين الجانبين الهامين ، لتقطع كل حجة لترك اتباع الرسل ، ولتدفع كل عذر يمكن أن يتعلل به هؤلاء المتوقفون .

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أن الفصل هنا للتأكيد لا للبدل(١١٦) ومما جاء على ذلك أيضا قول الشاعر :

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا والا فكن فى السر والجهر مسلما

---

(١١٥) سورة يس ٢٠ ، ٢١ .

(١١٦) انظر تفسير أبى السعود مجلد ٧ ص ١٦٣ ، وفتح القدير مجلد ٤ ص ٣٦٥ .

فالقصد من البيت اظهار كمال الكراهة لاقامته ، لخلاف سره علانيته ، واظهاره غير ما يبطن ، ولهذا طالبه أولا بالرحيل الذى يدل على كراهة اقامته ، دلالة التزامية ، ثم نهاه عن الاقامة صراحة بقوله « لا تقيمن عندنا » وهذه أوفى فى تأدية المراد لدلالتها على كراهة الاقامة دلالة مطابقية عرفية ، مع التأكيد بالنون •

وذكر صاحب المطول : أن قولهم : لا تقم عندى صار يحسب العرف حقيقة فى اظهار كراهة اقامته وحضوره ، حتى انه كثيرا ما يقال : لا تقم عندى — ولا يراد به كفه عن الاقامة ، بل مجرد اظهار كراهة حضوره ، والتأكيد بالنون دال على كمال هذا المعنى ، فصار — لاتقيمن عندنا — دالا على كمال اظهار الكراهة لاقامته بالمطابقة»(١١٧) والدلالة المطابقية العرفية أقوى فى اظهار المراد من الدلالة الالتزامية المعبر عنها باسلوب الأمر «ارحل» • ولم يتوسط العاطف بين الجملتين لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى — كما يقول الخطيب القزوينى وغيره من البلاغيين•••فوزانها وزان — حسنها — فى قولك : أعجبتنى الدار حسنها لأن معناها مغاير لمعنى ما قبلها وغير داخل فيه مع ما بينهما من الملابسة(١١٨) •

وليس هناك ما يمنع أن تكون العلاقة بين الجملتين هنا علاقة توكيد أو بيان • بمعنى أن يكون قوله : لا تقيمن عندنا — تأكيدا لما يستلزمه قوله « ارحل » وهو كراهية الاقامة ، أو بيانا للمقصود بالرحيل •

ولعل صلاحية الشواهد التى استشهد بها البلاغيون للبدل ، لأن تكون من قبيل التوكيد أو البيان،قد جعل الكثير من البلاغيين يميلون

---

(١١٧) المطول ص ٢٥٥ •

(١١٨) بغية الايضاح ج ٢ ص ٧٥ •

الى رأى الامام عبد القاهر بقصر كما لالاتصال على التأكيد والبيان •

شبه كمال الاتصال :

وكما يمتنع العطف اذا كان بين الجملتين كمال اتصال ، فانه يمتنع أيضا اذا كان بينهما شبه ذلك •

وشبه كمال الاتصال كما حدده البلاغيون هو ــ أن تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال مقدرا اقتضته الجملة الأولى ــ فتنزل الأولى منزلة السؤال لكونها مقتضية له ، وتنزل الثانية ــ منزلة الجواب ، فتفصل عنها ، كما يفصل الجواب عن السؤال •

والسكاكى يرى أن الجملة الأولى تكون كالمورد للسؤال بفحواها فينزل ذلك السؤال المدلول عليه بالفحوى منزلة الواقع ، وتكون الجملة الثانية جوابا لذلك السؤال ، فتقطع عنه •• ويسمى هذا القطع استئنافا بيانيا • أى استئنافا يجيب عن سؤال تضمنه الكلام السابق ، وبذلك تكون الجملة الثانية تابعة للجملة الأولى كما يتبع الجواب السؤال ، ولا توجد الثانية بدون الأولى ••• فهو شبيه باستتباع الأولى للثانية فى التوكيد والبيان ، ولذلك سمى ــ شبه كمال الاتصال •

والفرق بين البيان فى الاستئناف البيانى المسمى بشبه كمال الاتصال ، وبين البيان فى كمال الاتصال ، هو أن البيان فى الاستئناف لا يكشف ابهاما أو غموضا فى الجملة الأولى وانما يجيب عن سؤال تضمنته وأوحت به •

فالاتصال بين الجمل فى الضرب الأول اتصال كامل بخلافه هنا (١١٩) •

---

(١١٩) انظر دلالات التراكيب ص ٣٢٧ •

فالعلاقة بين الجملتين هنا علاقة سؤال وجواب ، والأصل أن يكون السؤال كلام انسان والجواب كلام انسان آخر ، ولا يعطف هذا على ذاك •

ويقول السكاكى : ان تنزيل السؤال المقدر منزلة السؤال الواقع لا يصار اليه الا لنكات لطيفة •• اما لتنبيه السامع على موقعه ، أو لاغنائه أن يسأل ، أو لئلا يسمع منه شيء ، أو لئلا ينقطع كلام المتكلم بكلامه ، أو للقصد الى تكثير المعنى بتقليل اللفظ • وهو تقدير السؤال وترك العاطف،أو لغير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك»(١٢٠) •

وقد تحدث الامام عبد القاهر عن هذا الضرب من أضرب الاتصال الذاتى حديثا فياضا فى « دلائل الاعجاز » فقال : ان تنزيل الكلام اذا جاء بعقب ما يقتضى سؤالا منزلته اذا صرح بذلك السؤال يقع كثيرا، ومن لطيف ذلك قول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة صدقوا ولكن غمرتى لا تنجلى

لما حكى عن العواذل أنهم قالوا : هو فى غمرة ، وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول : فما قولك فى ذلك وما جوابك عنه ؟ أخرج الكلام مخرجه اذا كان ذلك قد قيل له ، وصار كأنه قال : أقول صدقوا ، أنا كما قالوا ، ولكن لا مطمع لهم فى فلاحى ولو قال : زعم العواذل أننى فى غمرة وصدقوا ، لكان لم يضع فى نفسه أنه مسئول ، وأن كلامه كلام مجيب »(١٢١) •

وعلى ذلك جاء قول جندب بن عمار :

---

(١٢٠) المفتاح ص ١٢١ •

(١٢١) دلائل الاعجاز ص ١٨٢ •

زعم العـــواذل أن ناقـــة جندب
بجنـــــوب خبت عـــريت وأجمت
كذب العـــواذل لو رأين مناخنـــا
بالقادســـــية قـــلن لـــج وذلت

لم تعطف جملة « كذب العـــواذل » على ما قبلها ، لأنهـــا بمثابة الجواب لسؤال مقدر أثارته الجملة الأولى فى نفوس السامعين ، وكأن سائلا سأل • ما قولك فى هذا الزعـــم ؟ فاستأنف الجـــواب بقوله : « كذب العواذل » وقد زاد أمر الاستئناف تأكيدا ووضوحا بأن وضع الظاهر موضع المضمر ، فلم يقـــل : كذبوا ــ مع أن المقام للضـــمير لتقدم ذكر المرجع ــ فدل ذلك على أنه قصد أن يضع الكلام الثـــانى وضـــعا لا يحتاج فيـــه الى الأول ، وأن يأتى به مأتى ما ليس قبلـــه كـــلام(١٢٢) •

وعليه أيضا جاء قول الشاعر :

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت ان الكلاب طويلة الأعمار

فالشاعر يقرر أنه قتل المهجو بالهجاء ، ويؤكد ذلك تأكيدا يمنـــع من الشك فى ذلك ، ثـــم ينفى موته بعـــد ذلك ، وكل هذه الخـــواطر والمعانى تحرك السامع وتدفعه لأن يسأل عن الســـبب فى عدم موته ، بعد هذا الهجاء القاتل المميت،فجاء الجواب فى قوله « ان الكلاب•• » وقد جاء هذا الجواب مشتملا على أقذع أنوع الهجاء وأسوئه ، وقد زادت « ان » أمر الاستئناف دقة وحسنا وجمالا •

والبلاغيون يستحسنون وقوع « ان » فى مثل تلك المواطن ، لأنها

---

(١٢٢) انظر بغية الايضاح ج ٢ ص ٨٢ •

تربط ما بعـدها بما قبلها ربطا وثيقـا ، ويرى الكلام معهـا مقطوعا موصولا فى وقت واحـد .

ولهذا استحسن أبو عمرو بن العلا وخلف الأحمر قول بشار :

بكرا صـاحبى قبل الهجـير ان ذاك النجاح فى التبكير

فقد ذكر أن خلف الأحمـر قال له : لو قلت يا أبا معاذ مكان ـ ان ذاك النجاح فى التبكير ـ بكرا فالنجاح فى التبكير ، كان أحسن . فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : ان ذاك النجاح ـ كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : بكـرا فالنجاح ـ كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكـلام(١٢٣) ... وقد قصد بشـار بقوله : اعرابية وحشـية أنها أعرابية خالصة . أى كما يقول أهـل اللغة الأصليون الذين أخذت عنهم ، ولم يقصد الغريب الوحشى الذى ينكره أهل البلاغة .

فوضع « ان » فى مثل هذا الموطن هو الأصل الذى عليه اللغـة فى بلاغتها ودقة نظمها ، أما مجىء الفاء فى تلك المواضع فهو من كلام المولدين .

هذا هو المفهوم من كـلام بشار ، وقـد أعجب بذلك « خلف الأحمر » فقام وقبل بين عينيه .

وسر تفضـيل « ان » على الفاء أن الكـلام مع « ان » يكون بمنزلة السؤال والجواب مما يكسبه طابع التأكيد والتشويق ، كمـا أنها تربط الجملتين ببعضهما ربطا معنويا ذاتيا أقوى من الربط بطريق العـاطف .

---

(١٢٣) بغية الايضاح جـ ١ ص ٥٦ .

يقول الامام عبد القاهر : انك ترى الجملة فى حال دخول «ان» ترتبط بما قبلهـا ، وتأتلف معه ، وتتحـد به ، حتى كأن الـكلامين قد أفرغا افراغا واحدا ، وكأن أحدهما قد سبك فى الآخر •

واذا جئت الى « ان » فأسقطتها رأيت الكلام الثانى قد نبا عن الأول ، وتجافى معناه عن معناه ، ورأيته لا يتصل به ، ولا يكون منه بسبيل ، حتى تجىء بالفاء فتقول : بكـرا صاحبى قبل الهجـير فذاك النجاح فى التبكير • ثم لا ترى الفاء تعيد الكلام الى ما كان عليه من الألفة ، وترد عليك الذى كنت تجد بـ « ان » من المعنى »(١٢٤) •

وهذا الضرب كثير جدا فى الذكر الحكيـم ، ومن أمثلته قـوله تعـالى : « يا أيهـا الناس اتقـوا ربـكم ان زلزلة السـاعة شىء عظيم »(١٢٥) فقد أمرهم بالتقوى وهى فعل كل ما أمر الله به ، وترك كل ما نهى عنه •

قال العلامة أبو السعود ، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئـة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر ، وتأكيد ايجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا ، أى احذروا عقوبة مالك أمـوركم ومربيكم »(١٢٦) •

ولما كان هذا الأمر الحامل للترهيب والترغيب مما يثير فى النفوس السـؤال عن العلة والسبب فى ذلك جاءت الجملة الثانية معللة لوجوب هذا الأمر ، مجيبة عما يجول فى النفس من الهواجس والأفكار ، وذلك بذكر بعض عقوبات الله الهائلة « ان زلزلة الساعة شىء عظيم » فذكر

---

(١٢٤) انظر دلائل الاعجاز ص ٢٤٣ •

(١٢٥) آية ١ سورة الحج •

(١٢٦) تفسير أبى السعود مجلد ٦ ص ٩١ •

بقوتها وشدتها وعنفهـا ، وأنها شيء عظيم لا تدرك العقـول كنهه ولا حقيقته .

وفى الاستئناف بـ « ان » من شدة الوقع وقوة التأثير،وحسن النظم ما ليس لغيرها فى هذا الموطن يدرك ذلك صاحب الذوق السليم والفهم اللطيف .

ومن ذلك أيضـا قوله تعالى « يا ابراهيم أعرض ، عن هـذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود »(١٢٧) .

فقول الملائكة لابراهيم عليه السلام « أعرض عن هذا » أى عن الجدال فى شأن قوم لوط ، مما يدفع النفس الى السؤال عن سـبب هذا الطلب ، ويجعلها تذهب فى شأن هؤلاء القوم ومصيرهم كل مذهب فجاء قول الحق سبحانه وتعـالى « انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود » كاشفا عن اجابة هذا التساؤل ومخرجا النفس من حيرتها وترددها .

ومن أبين الأمثلة التى ذكرها عبد القاهر وغيره من البلاغيين فى هـذا الشـأن . قول الحق سـبحانه وتعـالى لسـيدنا نوح عليـه السـلام « ولا تخاطبنى فى الذين ظلمـوا انهم مغرقون »(١٢٨) أى لا تدعنى يا نوح فى شأن قومك الظـالمين ، ولا تطلب دفع العـذاب عنهم بشفاعتك ، لأنهم قد حكم عليهم بالاغـراق وقد جف به القلـم فلا سبيل الى كفه عنهم ... فقوله « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا » يلوح باستحقاقهم العذاب ، وهو مع ما سبقه من قوله تعالى « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » يجعل النفس تتساءل . هل أصبح هؤلاء القوم

---

(١٢٧) سورة هود ٧٦ .

(١٢٨) سورة هود ٣٧ .

محكوما عليهم بالاغراق ، فجاء قوله تعالى « انهم مغرقون » اجابة لهذا التساؤل ، فلم يحتج الى توسط حرف الربط بين الجملتين لما بينهما من الترابط الذاتى المعنوى •

هذا ودخول « ان » فى مثل تلك المواطن هو الأفضل والأنسب والأوفى لحق البلاغة ، ولكن هذا لا يعنى أن الفاء لا يجوز دخولها ، وأنها اذا دخلت يفسد الكلام ، بل يعنى أن دخول الفاء يخرج الكلام عن أن يكون جواب سؤال مقدر •

يقول الزركشى : « واعلم أن كل جملة صدرت بان مفيدة للتعليل، وجواب سؤال مقدر ، فان الفاء يصح أن تقوم فيها مقام « ان »مفيدة للتعليل ، ويحسن تجريدها عن كونها جوابا للسؤال المقدر »(١٢٩) ذكر ذلك أيضا الشيخ عبد المتعال الصعيدى • ومثل له بقول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى(١٣٠)

وقد تدخل الفاء على ان فتؤذن كذلك بأن الجملة التى دخلت عليها ليست متولدة عن الأولى ، أو كالجواب لسؤال تضمنته ، ولكل ذلك مقام يقتضيه وحال يتطلبه •

وقد ذكر العلوى : أن الفاء قد تدخل على ان ، وقد لا تدخل عليها وهو الأكثر فى كتاب الله تعالى •• والضابط لدخولها وعدم دخولها ، هو أنه اذا كان المقصود الربط بين الجملتين حتى كأنهما قد أفرغا فى قالب واحد ، وسبكا سبكا واحدا منتظما ، فانها تأتى بغير فاء ، وهذا كقوله تعالى : « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم

---

(١٢٩) البرهان ج ٢ ص ٤٠٧ •
(١٣٠) بغية الايضاح ج ٢ ص ٨٣ •

الأمور » وقوله « وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » وقوله « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا »•وغير ذلك كثير فى كتاب الله •

ويعترض العلوى على ما ذكره علماء البيان من أن الكلام هنا محمول على تقدير سؤال وجواب ، وأن هذا هو سبب حذف الفاء التى تؤذن بالوصل ، ويقول : ان سبب زوال الفاء فى رأيه أن الجملتين قد مزجا مزجا واحدا ، وأفرغا افراغا واحدا ••• أما اذا دخلت الفاء فان ذلك يؤذن بأن الجملة الثانية مغايرة للأولى ، ولهذا تأتى الفاء لتصل بينهما • وعليه قوله تعالى : « فانكم وما تعبدون من دون الله » هكذا وردت الآية فى كتاب الطراز « بالفاء »(١٣١) •

والآية فى سورة الأنبياء رقم ٩٨ « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » هكذا بغير فاء ••• أما التى جاءت بالفاء فآية سورة الصافات « فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين »(١٣٢) •

ومما جاء بالفاء أيضا قوله تعالى « طلعها كأنه رءوس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون »(١٣٣) وقوله « انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم »(١٣٤) وقوله « قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس »(١٣٥) •

وكلام العلوى فى كون دخول « ان » بدون الفاء يعنى قوة الارتباط ، وشدة السبك والمزج بين الجملتين مأخوذ من كلام

---

(١٣١) انظر الطراز ج ٢ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ •

(١٣٢) سورة الصافات ١٦١ ، ١٦٢ •

(١٣٣) ٦٥ ، ٦٦ سورة الصافات •

(١٣٤) سورة طه ٧٤ •

(١٣٥) ٩٧ سورة طه •

عبد القاهر فى ذلك ، الا أن عبد القاهر يرى أن قوة المزج وشدة الترابط ناشئة عن الاستئناف البيانى ، أما العلوى فلم يذكر منشأ ذلك •

وذكر الدكتور محمد أبو موسى : أن الفاء اذا دخلت على ان أخرجت الكلام عن أن يكون بمنزلة السؤال والجواب ، وهو كثير •• ومن ذلك ما جاء فى وصية سيدنا عمر للخليفة من بعده : « أوصيك بأهل الأمصار خيرا فانهم ردء العدو ، وجباة الأموال والفيء ، وأوصيك بأهل البادية خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام » •

فالكلام فى مثل هذا لم يبن على أساس أن تكون الجملة الثانية متولدة من الأولى ، وموصولة بها على تقدير السؤال والجواب ، وانما هى مرتبطة بها بالفاء التى تعطفها عليها عطف العلة على المعلول ، فصار بين الاسلوبين فرق لأن أحدهما يقوم على الروابط الداخلية الخفية ، والآخر يقوم على العلاقات الظاهرة »(١٣٦) •

وقد تأتى الجملة الواقعة موقع الجواب بالواو • كما فى قول ابن ميادة :

فلا صرمه يبدو وفى اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

قال صاحب المطول : كأنه لما قال : « فلا صرمه يبدو » قيل له : وما تصنع بصرمه ؟ فأجاب بقوله : وفى اليأس راحة(١٣٧) وقد اشتملت الجملة على الواو كما ترى •

وقد ذكروا من ذلك أيضا قول الله تعالى « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من ما تبين لهم

---

(١٣٦) انظر دلالات التراكيب ص ٣٣٩ •
(١٣٧) انظر المطول ص ١٣٤ •

أنهم أصحاب الجحيم وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعده وعدها اياه »(١٣٨) .

فقوله « وما كان استغفار ابرهيم لأبيه ... » واقع موقع الجواب لسؤال مقدر اقتضاه ما قبله ، كأنهم لما نهوا عن الاستغفار لأقربائهم من المشركين قالوا : لم استغفر ابراهيم لأبيه ، فأجيبوا بما ذكر ، وقد اشتملت جملة الجواب على الواو كما نرى .. وقد أجيب بأن الواو فى الآية والبيت للاستئناف لا للعطف .. وقال عبد الحكيم : ان الآية الأولى وهى قوله تعالى « ما كان للنبى .. » نزلت فى منع الرسول عليه الصلاة والسلام من الاستغفار لعمه ، ومنع المؤمنين من الاستغفار لآبائهم محتجين فى ذلك بأن ابراهيم استغفر لأبيه فالآية الأولى منع لهم عن الاستغفار للآباء والأقربين والثانية جواب لتمسكهم باستغفار ابراهيم فعطف الثانية على الأولى للتناسب »(١٣٩) .

هذا والحديث عن الاستئناف البيانى طويل ، وشواهده كثيرة ، وقد اهتم به البلاغيون اهتماما كبيرا ، وأكثروا من الاستشهاد له حتى بدأ أنه اكثر أسباب الفصل أو الاتصال المعنوى شيوعا فى الكلام ، ومن الحسن البين الذى ذكروه فى ذلك قول المتنبى :

وما عفت الرياح له محلا عفاه من حدا بهم وساقا

لما نفى أن ما يشاهد به من العفاء من الرياح ، وكان فى العادة انه اذا نفى الفعل الموجود الحاصل عن واحد ، فقيل : لم يفعله فلان . أن يقال : فمن فعله ؟ قدر كأن سائلا سأل ذلك قائلا،اذا كانت الرياح

---

(١٣٨) التوبة ١١٣ ، ١١٤ .

(١٣٩) انظر حاشية الدسوقى جـ ٣ ص ٥٣ .

لم تعف له محلا فما عفاه اذن ؟ فقال مجيبا له : عفاه من حدا بهم وساقا .

ونلاحظ هنا أن الشاعر قد ذكر الفعل صريحا فى الجواب،فقال : عفاه من حدا بهم « مع أن السؤال عن الفاعل ... » ونحن حين نقول : من ذاكر ؟ فان الاجابة فى الغالب الأعم تكون بحذف الفعل ، فيقال : خالد ، مثلا ، ولا يقال : ذاكر خالد ، لأن ذكر الفعل فى السؤال يغنى عن ذكره فى الجواب ، وفاء لحق الايجاز الذى هو سمة عظيمة من سمات بلاغة لغتنا .

فالأصل عند السؤال عن الفاعل أن يحذف الفعل من الجواب .. فلماذا اذن لم يراع الشاعر هذا الأصل هنا ؟

والجواب أن ذلك يراعى عندما يكون السؤال مذكورا كالمثال الذى ذكرناه ، وكما تقول : من فتح مصر ؟ فنقول : عمرو بن العاص . بحذف الفعل ... أما اذا كان السؤال مقدرا كما فى البيت الشعرى السابق فان الفعل يذكر فى الجواب ، لأنه لم يذكر صراحة فى السؤال ، فاذا لم يؤت به فى الجواب ، لم يكن الى العلم به سبيل ، وظهر الكلام كالمتباعد المختلف ، وانفرط عقد نظمه وتآلفه .. ولك أن تتأمل البون الشاسع بين حسن النظم والتئامه فى قول الشاعر .

وبين أن تقول مثلا : وما عفت الرياح له محلا من حدابهم وساقا فترى الكلام عند حذف الفعل قد ظهر بصورة مفككة لا رابط يجمعه ولا ضمام يضمه .

وقد بين الامام عبد القاهر ذلك فقال : ان السؤال اذا كان ظاهرا مذكورا فى مثل هذا كان الأكثر أن لا يذكر الفعل فى الجواب ، ويقتصر على الاسم وحده ، فأما مع الاضمار فلا يجوز الا أن يذكر الفعل ..

تفسير هذا أنه يجوز لك اذا قيل : اذا كانت الرياح لم تعفه فما عفاه ؟ • أن تقول : من حدا بهم وساقا ، ولا تقول : عفاه من حدا •• وأما اذا لم يكن السؤال مذكورا كالذى عليه البيت ، فانه لا يجوز أن يترك ذكر الفعل • فلو قلت مثلا : وما عفت الرياح له محلا من حدا بهم وساقا•• تزعم أنك أردت عفاه من حدا بهم •• ثم تركت ذكر الفعل أحلت (١٤٠) •

وقد يحذف صدر الجملة المستأنفة أو كلها ، لكن لابد فى تلك الحالة من وجود قرينة تدل على الحذف • ومن ذلك قوله تعالى « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » على قراءة « يسبح » بالبناء للمفعول فيكون قوله « رجال » فاعل لفعل محذوف أى « يسبحه رجال » وهذه الجملة جواب لسؤال أثارته الجملة الأولى • فكأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : رجال • أى يسبحه رجال ، أو المسبح رجال •

وجاز حذف الفعل لوجود الدليل عليه فى الجملة المثيرة للسؤال • أى اعتمادا على « يسبح » المذكور فى الآية لا على المذكور فى السؤال المقدر لأن ذلك لا يجوز كما ذكر الامام عبد القاهر (١٤١) •

وقد يحذف الاستئناف كله ويقام ما يدل عليه مقامه كقول الحماسى :

زعمتم أن اخوتكم قريش لهم الف وليس لكم الاف

فانه لما قال : زعمتم أن اخواتكم قريش • كان ذلك دافعا لأن يقولوا : أصدقنا فى ذلك أم كذبنا ؟ فقال تقديرا : « كذبتم » ثم دل عليه بقوله « لهم ألف وليس لكم الاف » فقد حذف الجواب الذى هو كذبتم • وأقام قوله : لهم الف •• الخ مقامه لدلالته عليه •

---

(١٤٠) دلائل الاعجاز ص ١٨٤ ، ١٨٥ •

(١٤١) انظر حاشية الدسوقى ج ٣ ص ٦٤ •

وقد اعترض السبكى على عد هذا من باب الفصل فقال : ومعه الحق فى ذلك : ان الفصل لا يعقل الا بين كلامين منطوق بهما ، فاذا كانت الجملة المستأنفة عما قبلها محذوفة فكيف يسمى ذلك فصلا ؟ (١٤٢)

وقد ذكر الامام عبد القاهر أن كل ما نراه فى التنزيل الحكيم من لفظ « قال » مفصولا غير معطوف يكون من قبيل الاستئناف المبنى على تقدير سؤال ــ والله أعلم ــ • وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن الكريم ومنه قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون عليه اللعنة : « قال فرعون وما رب العالمين • قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين • قال لمن حوله ألا تستمعون • قال ربكم ورب آبائكم الأولين • قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون • قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون • قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين • قال أو لو جئتك بشىء مبين • قال فأت به ان كنت من الصادقين » (١٤٣) •

جاء ذلك كله ــ والله أعلم ــ على تقدير السؤال والجواب كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقين • فلما كان السامع منا اذا سمع أن فرعون قال : وما رب العالمين ؟ وقع فى نفسه أن يقول : فبم رد موسى على هذا الكافر ؟ أتى قوله : « قال رب السموات والأرض » مأتى الجواب مبتدأ مفصولا غير معطوف(١٤٤) •

ومن هذا القبيل أيضا ما ورد فى قصة ابراهيم • على نبيا وعليه أفضل الصلاة والسلام •• قال الله تعالى « واتل عليهم نبأ ابراهيم •

---

(١٤٢) انظر عروس الأفراح جـ ٣ ص ٦٧ شروح التلخيص •

(١٤٣) الآيات من ٢٣ ــ ٣١ سورة الشعراء •

(١٤٤) انظر دلائل الاعجاز ١٨٦ •

اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون • قالوا نعبد أصناما فنظل لها عـــاكفين • قال هل يسمعونكم اذ تدعون•وينفعونكم أو يضرون • قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون • قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآباؤكم الأقدمون •فانهم عدو لى الا رب العلين » (١٤٥) •

جاء كل ذلك على ما سبق ذكره من تقدير السؤال والجواب ••• وهكذا التقدير والتفسير أبدا فى كل مـــا جـــاء فيه لفظ « قال » هذا المجىء (١٤٦) •••

وقد ذكر الخطيب القزوينى وغـــيره من البلاغيين أن الاستئناف يقع على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : أن يكون السؤال عن سبب عام ، وهذا لا يقتضى تأكيد الجواب ومنه قول الشاعر :

قال لى كيف أنت قلت عليـــل
ســـهر دائم وحـــزن طويل

أى ما بالك عليلا • أو ما سبب علتك ؟ • ومثله قول أبى تمام :

السيف أصـــدق نباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

كأنه قيل : لم كان السيف أصدق ؟ وعليه أيضا قول المتنبى :

من يهن يســـهل الهوان عليه
مـــا لجـــرح بميت ايـــلام

---

(١٤٥) الآيات من ٦٩ ـ ٧٧ سورة الشعراء .
(١٤٦) انظر دلائل الاعجاز ١٨٦ .

الضرب الثانى : أن يكون السؤال عن سبب خاص • كقوله تعالى حكاية عن قول يوسف عليه السلام : « وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى » (١٤٧) وقوله تعالى « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا أنهم مغرقون »(١٤٨) •

والفرق بين هـذا الضرب والذى قبله • هو أن الجملة الأولى أو سياقها اذا لوحا بالاستئناف ، فالسؤال المقدر عن سبب خاص ، والا فهو عن سبب عام •• والسؤال فى أمثلة الضرب الأول عن السبب العام أما فى قوله « وما أبرىء نفسى •• » فان الذهن فيه ينصرف الى سبب خاص ، وورود هذه الآية فى سياق قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز يقوى أن يكون السؤال المقدر هنا عن السبب الخاص ، وهو : هل النفس أمارة بالسوء ؟ • وهكذا قوله : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ••• » فان نهى الحق سبحانه وتعـالى لنوح عليه السلام عن مخاطبته فى شأن قومه يوحى بأن عقابهم أصبح وشيكا ، وما سبق ذلك من قوله تعالى « واصنع الفلك بأعيننا ووحينـا » يقوى ويرجح كون السؤال المقدر عن سبب خاص ــ وتقديره • هل أصبح هؤلاء القـوم محكوما عليهم بالاغراق ؟ •

وعلى هذا أيضا جاء قول أبى نواس :

عليك باليأس من النـاس
ان غنى نفسك فى اليأس

وهذا الضرب يقتضى تأكيدا الحكم استحسانا لأن السؤال فيـه عن سبب الحكم ، مما يعنى تردد المخاطب فيه ، ولهذا حسن توكيده •

---

(١٤٧) سورة يوسف ٥٣ •
(١٤٨) آية ٣٧ سورة هود •

يقـول صاحب المطول : اذا قلت : أعبد ربك ان العبادة حق له • فهو جواب عن السؤال عن السبب الخاص • أى هل العبادة حق له ؟ واذا قلت : فالعبادة حق له • فهو بيان ظاهر لمطلق السبب ، ووصـل ظاهر بحرف موضوع للوصل •• واذا قلت : العبـادة حق له • فهو وصل خفى تقديرى الاستئناف جواب للسؤال عن مطلق السبب أى لم تأمرنا بالعبادة له ••• وهو يرى أن هذا أبلغ الوصلين وأقواهما • فقد تفاوتت هذه الثلاثة بحسب تفاوت المقامات (١٤٩) •

الضرب الثالث : أن يكون السؤال عن غيرهما ، أى عن غير السبب المطلق والسبب الخاص • كقوله تعالى : « قالوا سلاما قال سلام » كأنه قيل : فماذا قال ابراهيم عليه السلام ؟ •

وهذا التقسيم وان كان جيدا دقيق النظرة الا أنه غير مطرد كبقية قواعـد هذا الباب وقوانينه •• ذلك انه قد يكون السؤال عن السبب العام ويؤكد الكلام ، ومنه قول الشاعر :

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت
ان الكلاب طـويلة الأعمـار

فقد أكد الشاعر الجواب لتقرير الحكم وتقـوية الاثبات مع أن السؤال عن السبب العام • أى لماذا لم يمت ؟

وقد يكون السؤال عن السبب الخاص ولا يؤكـد • وعليه قـول الشاعر :

اذا ما الدهر جر على أنـاس
كلا كله أنـاخ بـآخرينـا

---

(١٤٩) المطول ص ٢٥٩ •

فقل للشـــامتين بنـــا أفيقـــوا
سيلقى الشامتون كمـــا لقينـــا

فالسؤال هنا عن الســـبب الخـــاص • وتقديره • هل ســـيلقى الشامتون من الدهر مثلنا ؟ • ذكر ذلك الشيخ عبد المتعال الصـــعيدى فى بغية الايضاح(١٥٠) ولعله قصـــد أن الجواب غير مؤكد بـــ « ان » والا فانه مؤكد بالسين •• وقد ذكر سيبويه والزمخشرى أن الســـين تؤكد الجملة الفعلية (١٥١) •

وكما يمنع البلاغيون توسط العاطف بين الجملتين لكمال الاتصال وشبهه ، يمنعون توسطه أيضا لكمال الانقطاع وشبهه •

والمقصود بكمال الانقطاع اختلاف الجملتين من حيث الصـــورة الظاهرة والمعنى الذى تدل عليه كل منهما •

وليس معناه أن تكون احدى الجملتين من واد والأخرى من واد آخر لا تضمهما علاقة ، ولا تجمعهما رابطة كما قد يتبادر من التســـمية ، فمثل تلك الأساليب ليست من الكلام البليغ ، ولا مما نحن فيه بسبيل ، فكمال الانقطاع الذى يقصده البلاغيون هو اختلاف الجملتين من جهة تركيب كل منهما ودلالتها ، بشرط وجود اللحمة والمناسبة التى تسوغ مجىء احداهما بعقب الأخرى •

وقد ذكر البلاغيون لهذا الضرب صورتين :

الصورة الأولى : أن تختلف الجملتان خبرا وانشاء لفظا ومعنى ، أو معنى فقط ـــ بشرط أن لا يوهم الفصل خلاف المقصود والا كان الوصل

---

(١٥٠) انظر بغية الايضاح ج ٢ ص ٨٠ •
(١٥١) انظر البرهان مجلد ٢ ص ٤١٨ •

ـ كما سيأتى ـ فالأول • كقوله تعالى « وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم »(١٥٢) وقوله « لا تحزن ان الله معنا » •

ولا يخفى أن الفصل فى كلا المثالين قد يكون للاستئناف البيانى وهو الأقرب ، لأن الجملة الثانيـة فى الآية الأولى تعليـل للأمر ، وفى الثانية تعليل للنهى •

ومما ذكروه من ذلك أيضا قول الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولهـا
فكل حتف امرىء يجرى بمقدار

فقد فصل الشاعر جملة « نزاولها » عن جملة «أرسوا» لاختلافهما خبرا وانشاء لفظـا ومعنى •• ويجوز هنا ايضـا أن يكون الفصـل للاستئناف البيانى ، بأن نقول : ان جملة « نزاولها » بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر أثارته الجملة الأولى ، وكأنه قدر فى نفسه أن سـائلا سأل • لم نرسوا ؟ فقال : نزاولها •• هذا ولا يخفى أن الجملتين هنا معمولتان لـ « قال » فلهما محل من الاعراب ممـا يدل على أن قصر البلاغيين هذه الأقسام على الجمل التى لا محل لها من الاعراب أمر يحتاج الى نظر •• وقد أجيب بأن ذلك باعتبار المحكى عنه ، والجملتان باعتباره لا محل لهما من الاعراب • قال ابن يعقوب : ورد هـذا بأنه تعسف ، لظهور أن المثال انما هو هذا الشطر ، والجملتان فيه معمولتان لـ « قال » وكلام أصحاب الشروح فى ذلك كثير ، وقد جعل سعد الدين البيت مثالا لكمال الانقطاع بين الجملتين باختلافهما خبرا وانشاء لفظا ومعنى مع قطع النظر عن كون الجملتين مما ليس له محل من الاعراب ، والا فالجملتان فى محل نصب مفعول قال (١٥٣) •

---

(١٥٢) سورة التوبة ١٠٣ •

(١٥٣) انظر شروح التلخيص جـ ٣ ص ٢٨ ، ٢٩ •

ومثال الثانى وهو اختلاف الجملتين خبرا وانشاء فى المعنى فقط، قولك : ذاكر الطالب وفقه الله • فالأولى خبرية لفظا ومعنى والثانية انشائية معنى لأنها دعائية • ومنه قول الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير
عرفت بها عدوى من صديقى

فالجملة الأولى انشائية معنى والثانية خبرية لفظا ومعنى ••• ومما ذكره السكاكى والخطيب من ذلك قول اليزيدى :

ملكته حبلى ولكنه
ألقاه من زهد عل غاربى
وقال انى فى الهوى كاذب
انتقم الله من الكاذب

فقد فصلت جملة « انتقم الله » عن جملة « قال » لأن الأولى خبرية لفظا ومعنى ، والثانية خبرية لفظا انشائية معنى(١٥٤) •

والأقرب أن يكون الفصل بين الجملتين هنا للاستئناف البيانى ، وذلك لأن جملة « قال انى فى الهوى كاذب » تثير تشوف السامع لمعرفة رأى الشاعر فى ذلك ، وكأنه قدر فى نفسه أن السامع قال له : وما قولك فى هذا ؟ فقال : انتقم الله من الكاذب • وهذا ما ارتآه الامام عبدالقاهر حيث قال : « جعل نفسه كأنه يجيب سائلا قال له : فما تقول فيما اتهمك به من أنك كاذب ؟ فقال أقول : انتقم الله من الكاذب »(١٥٥) وجعل بعضهم القطع هنا للاحتياط كما سيأتى فى « شبه كمال الانقطاع » •

---

(١٥٤) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٦٩ •
(١٥٥) دلائل الاعجاز ص ١٨٣ •

ومن هنا نرى أن العلل التى ذكرها البلاغيون للفصل والوصل تتداخل وتختلط فى كثير من الأحيان ، والناقد البليغ هو الذى ينظر الى العلة التى تؤكد تلاحم الأساليب وتقوى الترابط بين الجمل ، ويأخذ بها، ويعتمد عليها فى الكشف عن علل الترابط وأسباب الصلات •

فالجمل التى تختلف خبرا وانشاء أكثر ما توجد فى الكلام مفصولة ولكن لا يجوز لنا أن نعلل فصلها بهذا الاختلاف لأنه تعليل لا يحل الأسلوب ، ولا يوضح ما بينه من روابط ، مع أننا نجد الروابط متينة وحية بين هاتين الجملتين فى فصيح الكلام ويتحقق فيها ما يتحقق فى غيرها ، فقد تكون الجملة الانشائية توكيدا للجملة الخبرية أو العكس، وقد تكون احداهما واقعة موقع الجواب عن الأخرى • وعلاقات المعانى بين الجمل لا تتأثر بأن هذه خبر وتلك انشاء ، وانما هما سواء من ناحية الأنساب والصلات التى توجد بين المعانى ••• ففى مثل قوله تعالى «وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم» نقول فيه : ان الجملة الثانية مرتبطة بالتى قبلها ، لأنها واقعة موقع الجواب ، وبينهما فى الوقت نفسه كمال انقطاع لاختلافهما خبرا وانشاء ، فتوصف مرة بكمال الانقطاع ، ومرة بشبه كمال الاتصال ، والنظرة الأولى شكلية صناعية لا تفيد فى تفهم الكلام وتذوق علاقاته • بخلاف النظرة الثانية(١٥٦) •

على أن قول البلاغيين بوجوب الفصل بين الجملتين المختلفتين خبرا وانشاء غير مسلم لهم • فقد أجاز كثير من النحويين عطف الخبر على الانشاء وعكسه •منهم ابن عصفور ، وابن مالك ، والصفار • ونقل أبو حيان عن سيبويه جواز قولهم : هذا زيد ومن عمرو ؟(١٥٧) وقد

---

(١٥٦) دلالات التراكيب ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ •

(١٥٧) انظر عروس الأفراح ص ٢٦ •

تكلموا عن ذلك فى قوله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق »(١٥٨) •

ومما جاء من ذلك أيضا قول الله تعالى « قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا »(١٥٩) فقد ذكر الزمخشرى أن قوله : « واهجرنى » معطوف على محذوف يدل عليه « لأرجمنك » أى فاحذرنى واهجرنى مليا ، لأن لأرجمنك تهديد وتقريع• قال أبو حيان : وانما احتاج الى حذف ليناسب بين العطف والمعطوف عليه ، وليس بلازم عند سيبويه ، بل يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة الانشائية • فقوله : « واهجرنى » معطوف على قوله : « لئن لم تنته لأرجمنك » وكلاهما معمول لاقول »(١٦٠) •

هذا وكلام البلاغيين فى العطف بالواو • أما الفاء فانها تقع بين الجملتين المختلفتين خبرا وانشاء ، لأنها قد تكون للسببية لا لمجرد العطف • كقولك : أكرمنى محمد فأكرمه ، ونصرك فلان فانصره • ومنه قول الله تعالى « وأنا اخترك فاستمع لما يوحى »(١٦١) وقوله « وان ربكم الرحمن فاتبعونى »(١٦٢) •

---

(١٥٨) آية رقم ١٢١ سورة الأنعام •
(١٥٩) آية ٢٦ سورة مريم •
(١٦٠) البحر المحيط المجلد السادس ص ١٩٥ دار الفكر •
(١٦١) سورة طه آية ١٣ •
(١٦٢) سورة طه ٩٠•

الصورة الثانية :

من صور كمال الانقطـاع أن لا يكون بين الجملتين جامع يجمع بينهما • اما لانتفائه عن المسند اليه فيهما • كقولك : خالد طويل ، عمرو قصير • اذا لم تكن هناك مناسبة بين خالد وعمرو ، من نحو صداقة أو تنافس ، أو عداوة ، أو غير ذلك من المناسبات الخاصة • واما لانتفائه عن المسندين • كقولك : خالد طويل عمرو عالم فى حال وجود مناسـبة أو علاقة خاصة بين خالد وعمرو •

وقد ذكر الشيخ عبد المتعال الصـعيدى أن ما يريده القوم بكمال الانقطاع فى هذا الضرب ، هو انتفاء الجـامع الخاص ، ولا يعنون بذلك أن يتفكك الكلام بحيث لا يكون فيه ارتباط ما يجمع بين أجزائه ، فمثل هذا لا يتأتى ، ولا يوجد فى فصيح الكلام»(١)•• اذ كيف تقوم فى النفس معان متغايرة كل منها مجلوب من واد غير الوادى الذى جلب منه الآخر ، ومن جهة تباين الجهة التى جاء منها ، ولا تتصـل بها بنوع ما من أنواع الاتصال••ان ذكر مثل هذه الجمل مظهر من مظاهر الاضطراب فى الحس والتفكير ، والناس جميعا فى هذا سـواء ، فلا تجـد أحدا يقول : يقل عدد السكان فى الأرض الصحراوية ـ ويرتفع سعر الورق ، ولا ازداد عدد الجامعات فى مصر ـ سقطت الأمطار ـ فمثل هذه الجمل فاسـدة عطفت أو لم تعطف •• وقد ذكـرنا قبـل ذلك أن البلاغيين قد عابوا التراكيب التى لا تتسق معانيها ، ولا تتآلف •• كما عابوا من جهل وجه التخلص من معنى الى معنى ، كالتخلص من الاحتجاج الى الوعيد • ومن النسيب الى المدح•فمن صحة النسق والنظم أن يحسن المتكلم الخروج

---

(١) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٧٠ •

من معنى الى آخر ، فيجعل الثانى متعلقا بالأول وغير منقطع عنه كقول البحـــترى :

شقائق يحملن الندى فكأنه
دموع التصابى فىخدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أرفلت
تليها بتلك البـــارقات الرواعـــد

فأحسن الخـــروج من وصف الروض والورود الى مدح الفتح بن خاقان : وربط بين المعنيين ربطا حسنا كما نرى •

فحـــال الأديب ــ كما يقول الامام عبد القاهر ــ ينبغى أن يكون كحال البانى يضع بيمينه ههنا فى حال ما يضع بيساره هناك ، وفى حال ما يبصر مكـــان ثالث ورابع يضـــعهما بعد الأولين ، وذلك حتى تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول(٣)

فترك العطف اذن فى الأساليب الفصـــيحة المحررة التى لا يوجد بينها الجامع الخاص ــ لا يعنى أبدا انعدام الروابط ، وخلو الكلام من المناسبة والعلاقة التى تصحح وجود هذا بعد ذاك ، وارتبـــاط أول منه بثان ، وثان بثالث وهكذا •• وانما يعنى أن المتكلم لم يوجه قصده الى اجتماع تلك الجمل بأداة العطف الظاهرة ، بل نظر الى العلاقات الذاتية بين الجمل ، والى دقائق وأسرار قد لا يلتفت اليها عند وجود العاطف •

ومن الأمثلة التى ذكرها البلاغيون لهذا الضرب ــ أى ترك العطف

---

(٣) راجع دلائل الاعجاز ٧٣ ، وسر الفصـــاحة ص ٢٦٠ ، دلالات التراكيب ص ٣٥٤ •

لعدم وجود الجامع ــ قول الحق سبحانه وتعالى « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »(٤) .

فقد فصلت هذه الآية عما قبلها مع أن سبيلها سبيل ما يتوسط فيه العاطف حيث تتحدث الآيات السابقة عن المؤمنين وصفاتهم،وهذه عن الكافرين وصفاتهم . ولكن ترك العطف لاختلافهما فى الغرض ، فلا يكون بينهما جامع .. يقول صاحب الكشاف : فان قلت : لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ، ولم تعطف كنحو قوله : «ان الأبرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم » وغيره من الآى الكثيرة ؟ . قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت ، لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب ، وأنه هدى للمتقين ، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت،فبين الجملتين تباين فى الغرض والاسلوب ، وهما على حد لا مجال فيه للعطف »(٥) .

وذكر السيد الشريف : أن تصدير الحديث عن الكفار بـ « ان » أشعر بالانقطاع ، والشروع فى فن آخر .. ثم قال : لا يقال الجملتان مسوقتان لبيان حال الكتاب ، فالأولى لبيان أنه هدى للمتقين ، والثانية لبيان أنه ليس هدى لأضدادهم ، فهما على حد يحسن العطف بينهما .. لأنا نقول : ان الذى سيقت له الثانية هو الحكم على الكفار بالاصرار ، وأن وجود الانذار وعدمه سواء عليهم،وأما أن الكتاب بحيث لا يجديهم فمعلوم تبعا لا قصدا ، ولو كان مقصودا لم يحسن العطف أيضا ، لأن الانتفاع به صفة كمال له يؤيد ما سيق له الكلام فى هذا المقام من تفخيم شأنه ، واعلاء مكانه ، بخلاف عدم الانتفاع »(٦) .

---

(٤) سورة البقرة آية ٦ .

(٥) الكشاف مجلد ١ ص ١٤٩ .

(٦) حاشية السيد على الكشاف ج ١ ص ١٤٩ .

وعلى نفس هذا الرأى سار القاضى أبو السعود ، فذكر أن سبب ترك العاطف هنا • هو التنافى فى الاسلوب ، والتباين فى الغرض ، فان الأولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب فى باب الهداية والارشاد ، والتعرض لأحوال المهتدين به انما هو بطريق الاستطراد والتبع ، لا بطريق الأصالة •

وأما الثانية فمسوقة لبيان أحوال الكفرة أصالة وترامى امرهم فى الغواية والضلال الى حيث لا يجديهم الانذار والتبشير ، ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير ، لأنهم سالكون طريق العناد والمكابرة »(٧) •

وأياما كان الأمر فالرباط المعنوى الذى يربط قوله تعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم ••• » بما قبله من قوله تعالى « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ••• الخ » موجود ، وتلاؤم النظم على أكمل وجه ، وتناسب الآيات ، واستدعاء هذه لتلك مما لايشك فيه •

ومما عد من ذلك يضا قول الحق سبحانه وتعالى « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان • الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان »(٨) •

فقد ترك العطف فى قوله « الشمس والقمر بحسبان » لما يسميه البلاغيون كمال الانقطاع لعدم وجود الجامع الخاص •• وهذا لا يعنى انعدام التناسب المعنوى ، أو وجود الصلة التى تربط هذه الآية بما قبلها ، ولكنه يعنى أنه استغنى عن الرابط اللفظى تعويلا على قول كمال الارتباط المعنوى •• يقول الزمخشرى : فان قلت كيف اتصل قوله

---

(٧) انظر تفسير أبى السعود مجلد ١ ص ٣٥ •
(٨) الآيات من ١ ـ ٦ سورة الرحمن •

« الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان » بالرحمن ؟ قلت : استغنى فيهما عن الوصل اللفظى بالوصل المعنوى ، لما علم ان الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره »(٩) .

ومثل هذا كثير فى القرآن الكريم وفصيح الشعر والنثر ، ومما جاء منه قول الشاعر :

فتى لا يبالى المدلجون بنوره
الى بابه ألا تضىء الكواكب
له حاجب فى كل أمر يشينه
وليس له عن طالب العرف حاجب

البيت الثانى مقطوع عن الأول لأنه يذكر معنى جديدا ... ومثله قول الفرزدق :

وركب كأن الريح تطلب عندهم
لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهى تلفهم
الى شعب الأوكار من كل جانب
اذا آنسوا نارا يقولون ليتها
وقد خصرت أيديهم نار غالب

البيت الثالث ابتداء معنى جديد والعلاقة المعنوية التى تصل هذه الأساليب ببعضها واضحة جلية(١٠) .

---

(٩) الكشاف مجلد ٤ ص ٤٤ .
(١٠) راجع دلالات التراكيب ص ٣٥٧ .

هذا وقد تدق المناسبة المعنوية والخيط الذاتى الرابط بين الجمل فى هذا الموطن ، حتى يحتاج الى كثير من التأمل والنظر ، ومن ذلك قوله تعالى « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين انما المؤمنين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون »(١١) .

قوله تعالى « كما أخرجك ربك من بيتك ... » مما نحن فيه . فالنظرة الأولى للآيات توهم أنه لا صلة له بما قبله ، فأى شىء شبه باخراج الله له من بيته الحق ؟.

وبشىء من النظر الدقيق ، والتأمل فى سياق الآيات ندرك المناسبة التى ربطت بين تلك الآية ، وما قبلها .. فالآيات السابقة نزلت فى شأن اختلاف المسلمين فى أمر الغنائم وتقسيمها ، فبين الله لهم أن أمر الغنائم موكول لله ورسوله . وأن المؤمنين الصادقين هم الذين يخافون الله ، ويلتزمون بما أمر به ، ويرضون بحكم الله ورسوله ... وهذا كله تحذير لهم من الاختلاف فى شأن الأنفال ، وحث لهم على الترفع عن مور الدنيا ، وترغيب لهم فيما عند الله من المغفرة والأجر العظيم ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمضى فى شأن الأنفال كما أمره الله ، غير ملتفت الى آراء البعض واختلافهم ، ففى تنفيذ ما أمر الله به الخير كله ، وان كره البعض ذلك .. ثم ذكره

---

(١١) الآيات من ١ ـ ٥ سورة الأنفال .

بأن كراهيتهم واختلافهم فيما رأيت فى شأن الأنفال يشبه كراهتهم واختلافهم فى شأن خروجك للحرب والقتال فى غزوة بدر ، وكما ثبت أن خروجك للقتال كان حقا وصوابا ، وقد من الله عليكم بالنصر العظيم ، سيثبت أيضا أن ما أمر به الله ورسوله فى شأن الغنائم هو الحق والصواب والخير •• وبهذا البيان تتضح المناسبة ، والعلاقة التى تربط قوله تعالى « كما أخرجك ربك •• » بما سبقها من الآيات •

وقد ذكر السيوطى أن تلك الآية هى من الحاق النظير بالنظير برباط معنوى لا يحتاج الى العاطف ، لأن الله تعالى أمر رسوله أن يمضى لأمره فى الغنائم على كره من بعض أصحابه ، كما مضى لأمره فى خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال ، وهم له كارهون •

والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج ، وقد تبين فى الخروج الخير من النصر والغنيمة وعز الاسلام ، فكذا يكون فيما فعله فى قسمة الأنفال ، فعليهم أن يطيعوا الله ورسوله فى كل ما يأمر به »(١٢) •

وبالرغم من أن جمهور البلاغيين يرى أن الجمل التى تفقد وجود الجامع الخاص بينها تجىء على حد لا مساغ فيه لتوسط حرف العطف بينها ، فان الزركشى صاحب البرهان قد ذكر أن الواو قد تدخل على مثل تلك الجمل وتسمى واو الاستئناف كما تسمى واو القطع والابتداء • وهى التى يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها فى المعنى ، ولا مشاركة لها فى الاعراب • كقوله تعالى « لنبين لكم

---

(١٢) انظر الاتقان ج ٢ ص ١٣٩ •

ونقر فى الأرحام»(١٣) وقوله «هل تعلم له سميا ويقول الانسان»(١٤)٠

ثم قال : والظـاهر أنها الواو العاطفة لـكنها تعطف الجمل التى لا محل لها من الاعراب لمجرد الربط ، وانما سـميت واو الاستئناف لئلا يتوهم أن ما بعدها من المفردات معطوف على ما قبلها »(١٥) ٠

وقد عدوا من ذلك أيضا قول الله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به »(١٦) ٠

فقد ذكر أن الواو فى قوله « والراسـخون » استئنافية لمجـرد الربط ٠ فيكون علم المتشابه مقصور على الله سـبحانه وتعالى ويكون « الراسخون » مبتدأ خبره « يقولون آمنا به » ويؤيد ذلك أن الله مدح الراسخين لقولهم : آمنا به ، كما يؤيده قراءة ابن عباس : ويقـول الراسخون فى العلم آمنا به(١٧) ٠

وقيل : الواو عاطفة للراسخين على لفظ الجـلالة ، وعليه فهم عالمون بتأويل المتشابه ، ويفسرونه بما يليق بجلال الله تعالى وعظمتـه ولذلك مدحوا ٠

وذكر العلوى أن الواو هنا عاطفة لجملة على جملة والتقـدير: فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، وأما الراسخون فى العلم فيقولون آمنا به ، وقد بين سبب إختياره لهذا الوجه ، فذكر

---

(١٣) آية ٥ سورة الحج ٠

(١٤) سورة مريم ٦٥ ، ٦٦ ٠

(١٥) البرهان جـ ٤ ص ٤٣٧ ٠

(١٦) آية ٧ سورة آل عمران ٠

(١٧) انظر البيان فى غريب اعراب القرآن لابن الأنبارى ١ / ١٩١ ٠

أن ظاهر الواو أنها للعطف ، فلا يجوز العدول عنه من غير دليل ، وهى ليست لعطف الراسخين على لفظ الجلالة لأن الراسخين جملة ولفظ الجلالة مفرد ، فلا يجوز عطفه عليه • وأيضا فان الراسخين لو كان معطوفا على اسم الله لم يحسن الوقوف على لفظ الجلالة دونه اذ لا يحسن الوقوف على المعطوف عليه دون المعطوف ، فلما حسن ذلك دل على امتناع عطفه عليه »(١٨) •

وأكثر علماء الأمة على الرأى الذى يقول : ان الواو للاستئناف وأن علم المتشابه مقصور على الله • وهو الرأى الأقرب الى الفهم وحسن النظم • وجليل المعنى •

شبه كمال الانقطاع :

وكما منع البلاغيون العطف لكمال الانقطاع منعوه أيضا لشبه كمال الانقطاع • وحده أن تكون الجملة الثانية بمنزلة ما يعطف على الأولى الا أن عطفها عليها يوهم عطفها على غيرها فيلتبس المعنى ، فتقطع عنها منعا للالباس ••• وانما شبه هذا بكمال الانقطاع باعتبار أنه يشتمل على مانع من العطف ، وهو ايهام خلاف المراد ، كما أن المختلفتين خبرا وانشاء ، أو المتفقتين اللتين لا جامع بينهما يشتملان على مانع ، لكن هذا دونه ، لأن المانع فى هذا خارجى ربما يمكن دفعه بنصب قرينة »(١٩) •

ومن الأمثلة المشهورة لهذا اللون قول الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

ذلك أن جملة « أراها » يمكن ان تعطف على جملة « تظن » لما

---

(١٨) انظر الطراز ج ٢ ص ٤١ •

(١٩) المطول ص ٢٥٧ •

بينهما من المناسبة الظاهرة ، فالمسند فيهما متحد ، والمسند اليه فيهما بينهما علاقة محب بمحبوب ، ولكنها لم تعطف عليها لئلا يتوهم السامع أنها أى جملة « أراها » معطوفة على قوله « أبغى » لقربها منه ، وعطفها على أبغى يفسد المعنى ، لأنه يجعلها من مظنونات سلمى وليس كذلك •

قال الخطيب القزوينى : « ويحتمل الاستئناف » أى يجوز أن يكون الفصل هنا للاستئناف البيانى على أساس أن قوله « وتظن سلمى اننى أبغى بها بدلا » يثير فى النفس سؤالا • كأنه قيل : كيف تراها فى هذا الظن ؟ فقال : أراها تتحير فى أودية الضلال(٢٠) •

وعلى ذلك يقول الشاعر :

يقولون انى أحمل الضيم عندهم
أعوذ بربى أن يضام نظيرى

لم يعطف جملة « أعوذ » على جملة « يقولون » لئلا يتوهم عطفها على جملة « أحمل » فتكون من مقولهم • وهى ليست منه(٢١) •• والاستئناف على تقدير السؤال والجواب جائز أيضا •

وقد تحدث الامام عبد القاهر عن هذا النوع من الفصل حديثا مفصلا فى دلائل الاعجاز ومثل له بقول الله تعالى « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم » •

الظاهر كما لا يخفى يقتضى أن يعطف قوله « الله يستهزىء بهم » على « انما نحن مستهزئون » وذلك انه ليس بأجنبى عنه ، بل هو نظير ما جاء معطوفا من قوله « يخادعون الله وهو خادعهم » وقوله « ومكروا ومكر الله » وما أشبه ذلك مما يرد فيه العجز على الصدر••

---

(٢٠) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٧٨ ، والمطول ص ٢٥٧ •
(٢١) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٧٨ •

ولـكنه لم يعطف هنـا لأمر أوجب ترك العطف ، وهو أن قوله « انما نحن مستهزءون » من حكاية كلام المنافقين ، وقوله «الله يستهزىء بهم» خبر من الله تعالى انه يجـازيهم ويعاقبهم على استهزائهم ... فكان محالا أن يعطف الذى هو خبر من الله تعالى على ما هو حكاية عنهم ، لايجاب ذلك أن يخرج عن كونه خبرا من الله تعالى الى كونه حكـاية عنهم ، والى أن يكونوا قد شهدوا على أنفسهم بأنهم مؤاخذون ، وأن الله يعاقبهم عليه » .. وليس الحال كذلك فى قوله تعالى « يخـادعون الله وهو خادعهم » لأن الأول من الكلامين فيهما كالثانى فى انه خبـر من الله تعالى وليس بحكاية »(٢٢) .

وما قيل فى منع عطف قوله تعالى « الله يستهزىء بهم » يقـال فى منع عطف قوله تعالى « ألا انهم هم المفسدون » وقوله « الا انهم هم السفهاء » على ما قبله من قوله تعالى « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انمـا نحن مصلحون ألا انهم هم المفسـدون ولكن لا يشعرون » .

وقوله « واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كمـا آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

وقيل ان قطع هذه الجمل عما قبلها للاسـتئناف ، فهى مستأنفة لرد الكلام السـابق ودحضه ، وقـد أعطى الاستئناف المعنى قـوة وتأكيدا وجزالة ... وقد رجح السـيد الشريف هذا الوجـه فى قوله تعالى « انما نحن مستهزئون » قال : والحمل على الاستئناف أوجه ، لكثرة الفائدة ، وقوة المحرك للسؤال »(٢٣) .

---

(٢٢) انظر دلائل الاعجاز ص ١٧٩ .

(٢٣) حاشية السيد على الكشاف جـ ١ ص ١٨٦ .

ولا وجه لأن يقال : انها من الممكن أن تأتى بالواو ـ لولا اللبس ، لأن الواو تفقد هذا الاستئناف جزالته فضلا عن أن السياق هنا واضح ، ولا يجوز معه اللبس • فلا أحد على الاطلاق يمكن أن يتوهم أن تكون تلك الجمل المستأنفة من مقولهم حتى لو عطفت بالواو لأنهم لا يمكن أن يصموا أنفسهم بما وصمهم الله سبحانه وتعالى به »(٢٤) •

فاذا تركنا مواطن الفصل أو الاتصال الذاتى الى مواطن الوصل أو الاتصال بواسطة العاطف ـ وجدنا ان البلاغيين قد حددوا تلك المواطن بما يكون خارجا عن مواطن القطع السابقة • وهذا يتمثل عندهم فى موطنين •

الأول أن يكون بين الجملتين كمال انقطاع ولكن ترك الواو يوهم خلاف المقصود ، ويفهم غير المراد ـ فيؤتى بها لازالة هذا الايهام ورفعه ••• وذلك كقولهم : لا وأيدك الله ـ ، ولا وغفر الله لك •••• فقولهم : لا ـ رد لكلام سابق ، كأنه قيل : هل الأمر كذلك ؟ فقيل : لا ـ أى ليس الأمر كذلك ، فهذه جملة اخبارية ، وأيدك الله جملة انشائية معنى ، لأنها دعائية ، فبينهما كمال انقطاع يمنع توسط العاطف ، لكن ترك العطف هنا يوهم خلاف المقصود ، فلو قيل : لا أيدك الله ـ لتوهم انه دعاء على المخاطب بعدم التأييد • فجىء بالواو العاطفة لدفع هذا الايهام • فالمعطوف عليه هو مضمون قولهم : لا ـ أى الجملة التى تضمنتها(٢٥) •

ومن الأمثلة الشائعة فى ذلك ما ذكر من ان أبا بكر رضى الله عنه مر على رجل فى السوق معه ثوب ، فقال له الصديق : أتبيع هذا الثوب

---

(٢٤) انظر دلالات التراكيب ص ٣٤٣ •

(٢٥) انظر عروس الأفراح وحاشية الدسوقى جـ ٣ ص ٦٨ •

فقال الرجل : لا يرحمك الله • فقال له الصديق : قد قومت ألسنتكم لو تستقيمون ، لا تقل هـذا ، وانما قل : لا ويرحمك الله •وقد ذكر مثل هذا الكلام كثيرا فى مجالس الخلفاء والوزراء ، حتى قال الصاحب بن عباد : ان الواو فى تلك الأمثلة من أحسن الواوت موقعا ، وهى أحسن من واوات الأصداغ على خدود الحسناوات(٢٦) •

وينبغى أن نعلم أن الواو فى مثل تلك المواطن لم تأت لتجمع بين امرين ، وانما جاءت لتدفع توهم غير المراد ، لأن المعنى بدونها ينقلب الى ضده ، ومن هنا أدرك النقاد والبلغاء قيمة هذه الواو ، وأثنوا على حسن موقعها •• ويمكن الاستغناء عن هذه الواو اذا وجد ما يقوم مقامها ويؤدى مهمتها فى دفع الايهام ، وذلك كالوقوف على « لا » مثلا وقفة خفيفة ، ثم يستأنف بعد هذه الوقفة النطق بالجملة الدعائية بدون واو ، أو بذكر الجملة المستفهم عنها ، بأن يقول الرجل فى المثال الوارد عن الصديق مثلا • لا أبيعه يرحمك الله •

يقول الدسوقى : « ان دفع الايهام لا يتوقف على خصوص العطف ، بل أو سكت بعد قوله : « لا » أو تكلم بما يدفع الاتصال ثم قال : رحمك الله ، أو أيدك الله • من غير عطف ، لكان الكلام خاليا عن الايهام »(٢٧) •

وقد ذكر البعض أن « الواو » هنا زائدة ، وليست عاطفة بل زيدت لدفع توهم النفى لما بعدها ، وقيل : استئنافية ، ورد الدسوقى بأنها فى الأصل للعطف ، فلا يصار الى خلافه الا عند الضرورة • ثم

---

(٢٦) انظر حاشية الدسوقى جـ ٣ ص ٦٨ •

(٢٧) حاشية الدسوقى جـ ٣ ص ٦٧ •

قال : ولعل القائلين بذلك أرادوا الهرب من لزوم عطف الانشاء على الاخبار (٢٨) .

وكما تأتى الواو بين جملتين بينهما كمال انقطاع لدفع توهم غير المراد ، تأتى أيضا بين جملتين بينهما كمال اتصال لنفس السبب ... وذلك كما يقول الرجل لمن سأله : أتلعب الكرة ؟ لا وتركت لعبها، فقوله : لا ـ معناه لا ألعب الكرة ، وقوله : تركت لعبها تأكيد لها ، فبينهما كمال اتصال يقتضى عدم توسط الواو . الا أن عدم توسطها يوهم خلاف المراد ـ ذكر ذلك الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى بغية الايضاح ـ ثم قال : وقيل : انه يتعين الفصل فى مثل هذا ، ويدفع الايهام بطريق آخر فيقال مثلا : لا قد تركت لعبها ـ أو يسكت قليلا بعد ـ لا ـ (٢٩) .

الموطن الثانى من مواطن الوصل . أن يكون بين الجملتين توسط بين الكمالين ـ كمال الاتصال وكمال الانقطاع ـ وقد أشار الامام عبد القاهر الى ذلك بقوله : فترك العطف يكون اما للاتصال الى الغاية ، أو الانفصال الى الغاية ، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين »(٣٠) .

ومعنى كلام عبد القاهر أن الجمل التى يتوسط بينها العاطف لابد ان يكون بينها مناسبة من وجه ، ومغايرة من وجه آخر .

وقد اشترطوا لتوسط العاطف وجود المناسبة بين المسندين ، وبين المسند اليهما فى الجملتين .

---

(٢٨) انظر حاشية الدسوقى ، وعروس الأفراح جـ ٣ ص ٦٨ .
(٢٩) انظر بغية الايضاح جـ ٢ ص ٨٤ .
(٣٠) دلائل الاعجاز ص ١٨٨ .

يقول عبد القاهر : انه كما يجب أن يكون المحدث عنه فى احدى الجملتين بسبب من المحدث عنه فى الأخرى ، كذلك ينبغى أن يكون الخبر عن الثانى مما يجرى مجرى الشبيه والنظير ، أو النقيض للخبر عن الأول • فلو قلت : زيد طويل القامة وعمر شاعر • كان خلفا ، لأنه لا مشاكلة ، ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر »(٣١) • وانما تقول : « زيد طويل القامة وعمرو قصير » ، وزيد كاتب وعمرو شاعر• اذا كانت هناك مناسبة بين المسند اليهما فى الجملتين ، كأن يكونا أخوين ، أو نظيرين ، او شريكين مثلا •

وما ذكره الامام عبد القاهر عن المناسبة أو الجامع بين الجملتين• أكده الخطيب القزوينى وغيره من البلاغيين • حيث ذكروا ان الجامع يجب ان يكون باعتبار المسند اليه فى هذه • والمسند اليه فى هذه • وباعتبار المسند فى هذه ، والمسند فى هذه جميعا(٣٢) •• وذهب البعض الى أن مجرد التناسب أو الاتحاد فى الغرض الذى تصاغ له الجمل يكفى فى صحة الوصل(٣٣) •

وقد قسم ــ السكاكى ــ الجامع الى عقلى ، ووهمى ، وخيالى•• فالعقلى هو ما يكون الجمع بين الشيئين فيه حقيقيا • وجعل منه الاتحاد فى التصور والتماثل والتضايف •• والوهى ، هو ما يكون الجمع بين الشيئين فيه اعتباريا ، وجعل منه شبه التماثل ، والتضاد، وشبه التضاد ••• والخيالى هو أن يكون بين الأشياء تقارن فى الخيال سابق ، وأسبابه مختلفة(٣٤) •

---

(٣١) دلائل الاعجاز ص ١٧٣ •
(٣٢) بغية الايضاح ج ٢ ص ٨٨ •
(٣٣) انظر بغية الايضاح ج ٢ ص ٨٩ •
(٣٤) انظر المفتاح ص ١٢٢ ، وبغية الايضاح ص ٩٠ ، ٩١ •

وهذا تقسيم دقيق وجيد • ينم عن علم وثقافة وسعة اطلاع ، واحاطة بعلوم العصر الذى عاش فيه العلامة السكاكى ، كما يدل على المعرفة الواسعة بطبائع الأمور ودخائل النفوس ، الا أنه لا يعول عليه كثيرا فى النظرة الأدبية والذوقية الى الأساليب ، فالمهم هو وجود الجهة الجامعة ، والمناسبة التى تحقق الارتباط بين الجمل ، وتسوغ وجود العاطف ، أيا كان مصدر هذه الجهة ، ومكان تلك المناسبة •

والناس مختلفون من حيث تصوراتهم للأشياء ، واجتماعها فى الأذهان ، وقدرتهم على تصور الرابط الذى يربط بين جمل قد تتباعد فى ذهن انسان ، وتتقارب فى ذهن انسان آخر •

وقد تظهر المناسبة جلية واضحة يدركها كل أحد ، وقد تخفى الا على المتذوق الفطن •

وقد ذكر العلامة السكاكى وصف الكلام فى أقوال بعض الأذكياء من ذوى الحرف المختلفة ، ليؤكد تفاوت الصور فى مخيلة كل فرد على حسب ما يزاوله من حرفة أو صناعة ، فتجىء ألفاظه وأوصافه ومعانيه متفقة مع ما يقوم به ، وما يتصوره وما يلابسه ويعايشه •

فالصيرفى يقول : خير الكلام ما نقدته يد البصيرة ، وجلته عين الرؤية ، ووزنته معايير الفصاحة ، فلا ينطق فيه بزائف ، ولا يسمح فيه ببهرج ••• والصائغ يقول : خير الكلام ما أحميته بكير الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر ، وخلصته من خبث الاطناب ، فبرز بروز الابريز مركبا فى معنى وجيز ••• والحداد يقول : أحسن الكلام ما نصبت عليه منفاخ الروية ، وأشعلت فيه نار البصيرة ، ثم أخرجته من فحم الافحام ، ورققته بفطيس الافهام ••• والخباز يقول : أحسن الكلام ما طبخته مراحل العلم ، وضمته دنان الحكمة ، وصفاه راووق الفهم ، فتمشت فى المفاصل عذوبته ، وفى الأفكار رقته ، وسرت فى

تجاويف العقل سورته وحدته ... والبزاز يقول : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن رسم معانيه ، فلم يستعجم عند نشر ، ولم يستبهم عند طى »(٣٥) .

وهكذا نرى انعكاس أثر الحرفة على كلام هؤلاء ، وندرك تأثيرها فى ألناظهم ... وأرباب صناعة البيان هم الذين يستطيعون تقدير هذه العلاقات ، وتلك الروابط التى تربط بين الجمل والمفردات ، ويحكمون على صحتها أو عدم صحتها .

ومن هنا قال البلاغيون : ان لصاحب علم المعانى فضل احتياج الى معرفة الجامع ، والتيقظ له ، ليستطيع ادراك المناسبة التى تجمع بين صور الكلام المختلفة ، والتى قد تظهر للوهلة الأولى وكأنها متباعدة .

لنتأمل مثلا قول الحق سبحانه وتعالى « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت »(٣٦) .

فقد يبدو للنظرة الأولى بعد البعير عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها ، ولعل هذا هو الذى دفع المبرد الى القول : بأن المراد بالابل هنا السحاب(٣٧) ، لأن العرب قد تسميها بذلك ، فهى تأتى أرسالا كالابل ، وتزجى كما تزجى الابل ، وهى فى هيئاتها أحيانا تشبه الابل ... يقول الزمخشرى : ولم يدع من زعم ان الابل السحاب الى هذا القول الا طلب المناسبة(٣٨) .

---

(٣٥) انظر المفتاح ص ١٢٣ .
(٣٦) سورة الغاشية من ١٧ ـ ٢٠ .
(٣٧) انظر فتح القدير جـ ٥ ص ٤٣٠ .
(٣٨) انظر الكشاف جـ ٤ ص ٢٤٧ .

فقد قصد المبرد من وراء قوله هذا أن يناسب بين المتعاطفات ، كما يقضى بذلك قانون البلاغة •

والحق انه ليس هناك داع الى هذا التكلف ، لأن المناسبة بين المتعاطفات موجودة من غير حاجة الى تكلفها •

ذلك أن الكلام فى هذا المقام مع العرب الذين كانوا يسكنون البوادى،ومطعمهم ومشربهم وملبسهم من الأنعام ، فعنايتهم مصروفة اليها وخصوصا الابل ، لأنها أعظمها لهم نفعا ، وأكثرها فائدة • ولما كان انتفاعهم بها لا يحصل الا بأن ترعى وتشرب ، كان لنزول المطر أهمية كبيرة عندهم ، ولذا فان نظرهم دائما يتجه الى السماء ترقبا لنزوله ، ولما كانوا مضطرين الى مأوى يأويهم ، ولا مأوى ولا حصن الا الجبال ، كانت بمكان من التفات خاطرهم اليها ، ولابد لهم من التنقل فى الأرض ، لأنهم أهل رعى ينتقلون وراء الماء والخضرة••فلما تآخذت عندهم تلك الأمور حسن فى الحديث بها معهم عطف بعضها على بعض(٣٩) •

وذكر الخطيب القزوينى : ان صور هذه الأشياء حاضرة عند البدوى على الترتيب المذكور ، بخلاف الحضرى الذى اذا لم يقف على ما نكر ظن النسق لجهله معيبا »(٤٠) •

ومما دقت فيه المناسبة ، واحتاج الى النظر والتأمل لمعرفة الجهة الجامعة أيضا • قول الله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج • وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى »(٤١) فقوله « وليس البر » يحتاج فى معرفة

---

(٣٩) انظر المصباح ص ٣٢ ، ٣٣ الطبعة الأولى •
(٤٠) بغية الايضاح ج ٢ ص ٩٣ •
(٤١) سورة البقرة ١٨٩ •

وجه اتصاله بما قبلـــه الى شيء من التـــأمل والنظر فى مســـاق الآية الكريمة ... وقد قيل فى وجه ذلك أن ناسا كانوا اذا أحرموا،لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه ، وانما يدخلون من نقب أو فرجة من الخلف، ويعدون ذلك برا ، فبين لهم أنه ليس ببر ، فلما ســـألوا عن الأهـــلة ، وذكر لهم أنها مواقيت للحج ، ذكر عقيبه ما هو من أفعالهم فى الحج استطرادا (٤٢) .

وقيل : هو معطوف على محذوف كأنه قيل لهم عند ســـؤالهم عن الأهلة : معلوم ان كل ما يفعله الله سبحانه وتعالى فيه حكمة عظيمة ، وفائدة جليلة ، فدعوا السؤال عن ذلك ، وانظروا فى واحدة تفعلـــونها أنتم مما ليس من البر فى شيء ، وأنتم تحسبونها برا ... ويحتمل أن يكون ذلك واردا على جهة التمثيل لما هم عليه من تعكيس الأسئلة،وان مثلهم فى ذلك ، كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره : فقيل لهم : ليس البر ما انتم عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم ، ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترىء على مثله(٤٣) .

وقد ذكر البلاغيون أن من الأمـــور التى تحسن العطف وتقـــويه تناسب الجملتين فى الاسمية والفعلية ، وفى المضى والمضارعة الا لنكتة بلاغية ، وأمثال ذلك كثير فى الذكر الحكيم ومنه قوله تعالى : « ان الأبرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم »(٤٤) ، « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليـــل »(٤٥) ، « فليضحكوا قليـــلا وليبكوا كثيرا »(٤٦) : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور»(٤٧)

---

(٤٢) انظر تفسير أبى السعود مجلد ١ ص ٢٠٣ .
(٤٣) انظر الكشاف مجلد ١ ص ٣٤١ ، والطراز ج ٢ ص ٥٠ .
(٤٤) سورة الانفطار ١٣ . (٤٥) سورة الحديد ٦ .
(٤٦) التوبة ٨٢ .
(٤٧) سورة الحج ٣٠ .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »(٤٨) ، « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا »(٤٩) « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٥٠) .

ومن أمثلة ذلك فى فصيح الشعر قول الشاعر :

وكل امرىء يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وقوله :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فان لذيذ العيش فى النصب

وقوله :

أعطيت حتى تركت الريح حاسرة وجدت حتى كأن الغيث لم يجد

وقوله :

نروح ونغدو لحاجتنا وحاجة من عاش لا تنقضى

وقد تعطف الاسمية على الفعلية اذا أريد فى احداهما التجدد ، وفى الأخرى الثبوت . مثل : زيد قام وعمرو قاعد . ومنه قوله تعالى « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم »(٥١) أى يفعلون فعل المخادع من اظهار الايمان ، وابطان الكفر ، وهو سبحانه معاقبهم على ذلك ، وجىء بالثانية اسمية للدلالة على ثبوت ذلك ودوامه .. ومن عطف الفعل على الاسم قوله تعالى « أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن »(٥٢) لم يقل وقابضات ليدل على تجدد القبض تارة بعد تارة..ذكر الزمخشرى أن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة،لأن

---

(٤٨) سورة الاسراء ٢٩ . (٤٩) سورة الأعراف ٣١ .

(٥٠) سورة الكهف ٢٩ . (٥١) ١٤٢ سورة النساء .

(٥٢) سورة الملك ١٩ .

الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها،وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارىء بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد أخرى »(٥٣) .

وقد تعطف المضارعة على الماضية وبالعكس وذلك لاعتبارات يقتضيها المقام ويتطلبها المعنى . كقوله تعالى « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله »(٥٤) .. قال ابن الأثير انما عطف المستقبل على الماضى . لأن كفرهم كان ووجد ، ولم يستجدوا بعده كفرا ثانيا، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وانما هو مستمر يستأنف كل حين »(٥٥) . وقوله تعالى « ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون »(٥٦) فتكذيبهم كان ووجد فعبر عنه بصيغة الماضى ، وقال « تقتلون » بصيغة المضارع استحضارا للصورة الماضية لشناعة القتل وفظاعته ..

وعلى العكس من ذلك جاء قوله تعالى « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا »(٥٧) حيث قال « وحشرناهم بصيغة الماضى بعد « نسير » و « ترى » وهما مستقبلان وذلك للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال والأهوال العظام .. كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك(٥٨) .

---

(٥٣) الكشاف جـ ٤ ص ١٣٨ .

(٥٤) آية ٦٣ سورة الحج .

(٥٥) المثل السائر جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٥٦)

(٥٧) آية ٤٧ سورة الكهف .

(٥٨) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٧ ، والمثل السائر جـ ٢ ص١٩٠

وقد ذكر الامام عبد القاهر أنه اذا كـان المخبر عنه فى الجملتين واحدا كقولك :هو يقول ويفعل ، ويضر وينفع ، ويسىء ويحسن ، ويأمر وينهى ، ويحل ويعقد ، ويبيع ويشترى ، وأشباه ذلك .

ازداد معنى الجمع فى الواو قوة وظهـورا ، وكان الأمر حينئذ صريحا ، وذلك أنك اذا قلت : هو يضر وينفع . كنت قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعلين جميعا ، وجعلته يفعلهمـا معا . واو قلت : هو يضر ينفع . من غير واو ، لم يجب ذلك ، بل قد يجوز ن يكون قولك « ينفع » رجوعا عن قولك « يضر » ، وابطالا له »(٥٩) .

هذا ومن المعلوم أنه لا فرق فى أمر الجهة الجامعة بين المفردات أو الجمل التى لها محل أو الجمل التى ليس لها محل ، فهذه الجهة هى التى تسوغ العطف وتصححه سواء أكان عطف مفردات أم جمل لهـا محل من الاعراب أم جمل ليس لها محل .

وقد أشرنا قبـل ذلك الى قول السبكى : ان الجملة التى لا محل لها وغيرها سيان فى اقتضاء العطف وعدمه ، والواو وغيرها سـواء فى اقتضاء الوصل وعدمه ، فليس المعتبر غير الجهة الجامعة سواء أكانت الجملـة الأولى لهـا محـل أم لا ، وسـواء أكان العطف بالواو ، أم بغيرها »(٦٠) .

والتوسط بين الكمالين صورتان :

الأولى أن تتفق الجملتان فى الخبرية أو الانشـائية لفظا ومعنى كقوله تعـالى « يخرج الحى من الميت ويخـرج الميت من الحى »(٦١)

---

(٥٩) دلائل الاعجاز ص ١٧٤ .
(٦٠) عروس الأفراح جـ ٣ ص ٥ .
(٦١) آية ٣١ سورة يونس .

وقوله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقد سبق ذكر الكثير من الأمثلة لتلك الصورة .

الثانية أن تتفق الجملتان فى الخبرية أو الانشائية معنى لا لفظا. كقوله تعالى « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وقولوا للناس حسنا »(٦٢) .

فسياق الكلام يقتضى أن يكون قوله : « لا تعبدون » خبرا قصد به الأمر . أى اعبدوا ، أو النهى أى لا تعبدوا . بدليل عطف «قولوا» عليه . والعدول عن صورة الأمر أو النهى الى صورة الخبر ، لأنه أبلغ من صريح الأمر أو النهى لأنه كأنه سارع أو يسارع الى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه ، ففيه اظهار كمال الرغبة فى الامتثال .

أما قوله : « وبالوالدين احسانا » فلا بد له من فعل ، فان قدر : « تحسنون » فالجملتان خبريتان لفظا انشائيتان معنى أى لا تعبدون الا الله وتحسنون بالوالدين .

وان قدر « أحسنوا » بصيغة الأمر فهو انشاء لفظا ومعنى عطف على الخبرية لفظا الانشائية معنى ، فيكون عطفه على « لا تعبدون » كعطف « قولوا » عليه .. وقد رجح ابن يعقوب التقدير الأول بوجهين أحدهما موافقة المعطوف عليه لفظا ، والآخر الايماء الى المبالغة فى تأكيد الطلب ، حتى كأن المخاطب سارع أو يسارع الى الامتثال ، فهو مخبر عنه بهذا الاعتبار لا مأمور . ثم قال : ويحتمل أن يكون وجه المبالغة الايماء الى أن الأليق بحال المخاطب أن لا يؤمر بهذا ، بل الأليق به أن يخبر به عنه لكون ذلك أنسب بحاله والأولى أن يتصف به »(٦٣).

---

(٦٢) سورة البقرة ٨٣ .

(٦٣) انظر مواهب الفتاح جـ ٣ ص ٧٣ .

والتقدير الثانى ، وان كان يفوت معه التنبيه على المبالغة التى يؤذن بها التقدير الأول ، فانه يعطى ايذانا بالمفارقة بين الأمر بعبادة الله ، والأمر بالاحسان الى الوالدين ، وما للأول من أهمية تفوق أهمية الثانى •• وبهذا يصبح كل واحد من التقديرين مرجحا باعتبار •

ومن ذلك أيضا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين »(٦٤) •

ذكر صاحب الكشاف أن قوله تعالى « وبشر المؤمنين » معطوف على قوله « تؤمنون » لأنه فى معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك »(٦٥) •

وقد اعترض صاحب المطول على كلام الزمخشرى • ومبنى اعتراضه أن المخاطب بالأول هم المؤمنون خاصة ، بدليل قوله تعالى « تؤمنون بالله ورسوله » وبالثانى هو النبى صلى الله عليه وسلم • وهما وان كانا متناسبين ، لكن لا يخفى انه لا يحسن عطف الأمر لمخاطب على الأمر لمخاطب آخر الا عند التصريح بالنداء : نحو يا زيد قم واقعد يا عمرو — •• على أن قوله « تؤمنون » بيان لما قبله على طريق الاستئناف • كأنهم قالوا : كيف نفعل ، فقيل « تؤمنون » فلا يصح عطف « بشر » عليه • ثم قال : والأحسن عطفه على « قل »

---

(٦٤) الآيات من ١٠ — ١٣ . سورة الصف •
(٦٥) الكشاف جـ ٤ ص ١٠١ •

مرادا قبل « يا أيها الذين آمنوا » أى قل يا محمد كذاوبشر ، أو على محذوف قبله • أى فأبشر يا محمد وبشر »(٦٦) •

ومن الأمثلة التى ذكرها البلاغيون أيضا لعطف الانشائية لفظا الخبرية معنى على الخبرية لفظا ومعنى • قوله تعالى ــ حكاية عن قول هود عليه السلام : « قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون »(٦٧) •• المعنى أشهد الله وأشهدكم ••• وانما عدل عن ذلك لأن اشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح وثابت ، وأما اشهادهم فما هو الا تهاون بهم ، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول ، وجىء به على لفظ الأمر لاختلاف ما بينهما •• وقد ذكر الامام أحمد بن المنير أن العدول عن صيغة الخبر الى صيغة الأمر للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر ، التى هى أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر ، والله الموفق للصواب »(٦٨) •

ومن عطف الخبرية لفظا ومعنى على الانشائية لفظا لا معنى،قوله تعالى « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه »(٦٩) •

فقوله « ودرسوا ما فيه » معطوف على قوله « ألم يؤخذ عليهم » وهو خبر من حيث المعنى ، لأن الاستفهام فيه للتقرير ، أى أخذ عليهم •

أما عطف الخبرية لفظا ومعنى على الانشائية لفظا ومعنى ، فان البلاغيين يمنعونه لما يسمونه بكمال الانقطاع بين الجملتين ، وقد

---

(٦٦) المطول ص ٢٦٣ •
(٦٧) ٥٤ سورة هود •
(٦٨) الانصاف ج ٢ ص ٢٧٦ •
(٦٩) سورة الأعراف ١٦٩ •

أشرت فيما سبق(٧٠) الى أن كلام البلاغيين فى هذا غير مسلم لهم ، وأن كثيرا من النحويين يجيزون عطف الخبر على الانشاء وعكسه .

وقد ذكر الزركشى أن علماء البيان منعوا « الواو » فى « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد » لأن الأولى خبرية والثانية طلبية . ثم قال : وخالفهم كثير من النحويين كابن خروف والصفار وابن عمرو ، وقالوا بجوازه ، ومن شواهدهم على ذلك قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس »(٧١) . فعطف خبرا على جملة الشرط وجملة الشرط على الأمر »(٧٢) .

ومما جاء من ذلك قول الله تعالى « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات»(٧٣) .

فالظاهر أن قوله تعالى « وبشر .. » معطوف على قوله «أعدت» وهما مختلفان خبرا وانشاء لفظا ومعنى ... وعلماء البيان لا يقرون ذلك . وقد اختلفوا فى المعطوف عليه .

فالزمخشرى يجعله من عطف القصة على القصة ، أو ما يسمونه عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ... يقول : فان قلت : علام عطف هذا الأمر — أى قوله « وبشر » — ولم يسبق أمر ولا نهى

---

(٧٠) عند الحديث عن كمال الانقطاع .
(٧١) سورة المائدة ٦٧ .
(٧٢) انظر البرهان جـ ٤ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٧٣) الآيات من ٢٣ — ٢٥ سورة البقرة .

يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمـر حتى يطلب له مشاكل ، انما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والارهاق وبشر عمرا بالعفو والاطلاق »(٧٤) .

وسـعد الدين فى المطـول يقول عن رأى الزمخشرى : انه دقيق حسن ، لكن من يشترط اتفاق الجملتين خبرا وانشاء لا يسلم صـحة ما ذكره من المثـال ، ولهذا قال السكاكى : انه معطـوف على « قل » مرادا قبل قوله تعـالى « يا أيها النـاس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكـم تتقون »(٧٥) . وجعلـه الخطيب القزوينى معطوفا على محـذوف يدل عليه ما قبلـه ، أى فانذرهم وبشر الذين آمنوا (٧٦) .

والقول بأنه من عطف القصة على القصة ـ كما يقول الزمخشرى ـ أجدر وأحق بالقبول ، لانتظام الذكر الحكيم عليه من غير حاجة الى تقدير أو تأويل . وقد رجحه السيد الشريف فى حاشيته على المطول . يقول : والظاهر ن من قدر فأنذرهم وبشر ، أو قل يا أيها الناس اعبدوا وبشر ، لم يتنبه لعطف القصة على القصـة ، بل جعله من عطف الجملة على الجملة ، فاحتاج الى التقدير لرعاية المناسبة ، ولله در جار الله ما أدق نظره فى اساليب الكلام ، وما أعرفه بأحوال أفانينه »(٧٧) .

وخلاصة القول أن البلاغيين قد ذكروا للفصـل أربعة مواطن هى

---

(٧٤) الكشاف جـ ١ ص ٢٥ .

(٧٥) آية رقم ٢١ سورة البقرة .

(٧٦) انظر المطول ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٧٧) حاشية السيد على المطول ص ٢٦٤ .

كمال الاتصال ، وكمال الانقطاع ، وشبه كل منهما • كما ذكروا للوصل موطنين • كمال الانقطاع مع الايهام ، والتوسط بين الكماليين • وزاد البعض موطنا ثالثا هو كمال الاتصال مع الايهام •

وقد وضح لنا من خلال تلك الدراسة المتواضعة لهذا الباب الشائك أن اغلب القواعد والمقاييس التى وضعها البلاغيون له ليست مطردة ولا ثابتة ، وكثيرا ما تتراجع وتختفى عند التطبيق الفعلى لها • وهذا هو الذى دعا علماء البلاغة والنقد ، ورجال البيان والأدب الى التنبيه على غموض هذا الباب ، ودقة مسلكه ، وصعوبة الوصول الى أعماقه ، وسبر أغواره ، كما دعاهم الى الاهتمام بالبحث فى دقائقه، والنظر فى خفاياه•••قال المأمون : من أتفحص من رجل شيئا كتفحصى عن الفصل والوصل فى كتابه ، والتخلص من المحلول الى المعقود ، فان لكل شىء جمالا ، وحلية الكتاب وجماله ايقاع الفصل والوصل موقعه ، وشحذ الفكرة واجالتها فى لطف التخلص من المعقود الى المحلول »(٧٨) •

والأمر الذى استقر عليه الرأى بعد كثير من النظر والتأمل فى هذا الباب أن المقام وسياق الكلام ، وقصد البليغ هى الأمور التى تحدد دائما ترك العاطف ، أو الاتيان به ، بصرف النظر عما اذا كان ذلك متفقا مع القواعد والمصطلحات التى وضعها البلاغيون فى هذا الشأن أولا ••• فكل موطن للعطف وتركه يعالج فى سياقه ومكانه ، وفى نطاق الغرض الذى جاء من أجله ، وفى حدود الاهتمامات التى قصدها البليغ ، وهدف اليها •

وقد عرضنا للكثير من ذلك أثناء تلك الدراسة ، ولا نرى بأسا من التذكير به مرة أخرى بذكر بعض الشواهد التى تؤكد ذلك •

---

(٧٨) الصناعتين ص ٤٢٦ •

قال تعالى فى سورة الأعراف « لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »(٧٩) .

وقال تعالى فى سورة المؤمنون « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »(٨٠) .

لو نظرنا الى الآيتين لوجدنا أن الواو قد تركت فى آية « سورة الأعراف » وذكرت فى آية « سورة المؤمنون » .

ولعل سر ذلك ــ والله أعلم ــ أن الآيات التى سبقت آية«الأعراف» ذكرت بعظيم خلق الله وبديع صنعه وعجيب قدرته فى الكون . فذكرت بخلق السموات والأرض فى ستة أيام وتسخير الشمس والقمر والنجوم، ثم ارسال الرياح التى تزجى السحب فتحمل الماء الى البلد الميت فتخرج الثمرات ، وكل ذلك تذكير بقدرة الخالق ونعمه وفضله. قال تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون »(٨١) ، ثم استأنف بعد ذلك بذكر قصة نوح فقال « لقد ارسلنا نوحا ... » فكان ذلك فى حكم كلام جديد مستأنف للتحذير والتنبيه فتركت الواو .

أما الآيات التى سبقت الآية فى « سورة المؤمنون » فقد تحدثت عن خلق الانسان من سلالة من طين ثم عن خلق السموات السبع،ثم ذكرت بانزال الماء الذى به تخرج الجنات من النخيل والاعناب،وقدرة الله سبحانه وتعالى فى كل ذلك واضحة جلية . ثم انتهى الى قوله

---

(٧٩) آية ٥٩ .
(٨٠) آية ٢٣ .
(٨١) آية ٥٨ سورة الاعراف .

« وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون »(٨٢) .

ونلاحظ أن سياق الآيات هنا مشابه فى بعض جوانبه لسياق الآيات فى سورة الأعراف الا انه باينه بأن كان فيه قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » وقوله « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » ثم بذكر الفلك التى عليها يحملون ... ولهذا دخلت الواو هنا لمشاكلة رؤوس الآيتين السابقتين ، وللمعنى المقتضى من ذكر الفلك الذى نجى الله عليه من جعله أصل الخلق وبذر هذا النسل(٨٣) .

وفى قوله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(٨٤) .

جاءت الجمل بعد قوله « ولقد كرمنا بنى آدم » وقد توسطت بينها الواو .. ولو ذكرت هذه الجمل من غير واو فقيل مثلا : حملنانهم فى البر والبحر رزقناهم من الطيباب..الخ لكانت بيانا للتكريم فى قوله « ولقد كرمنا ... » فلما توسطت الواو ، آذن ذلك باستقلال كل نعمة من تلك النعم ، واعتبار كل منها بمفرده دالا على عظيم المنة وجليل الفضل .

وقد ذكر الرازى أن من يعد النعم على غيره تارة يذكرها من غير حرف فيقول : فلان أنعم عليك كثيرا . أغناك بعد فقر،أعزك بعد ذل . قواك ضعف » وأخرى يذكرها بحرف عاطف قد يكون واوا ، وقد يكون فاء ، وقد يكون ثم . فيقول : فلان أكرمك وأنعم عليك وأحسن اليك ... ويقول : رباك فعلمك فأغناك .. ويقول : أعطاك ثم أغناك .

---

(٨٢) سورة المؤمنون ٢١ ، ٢٢ .
(٨٣) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٥٠ .
(٨٤) سورة الاسراء ٧٠ .

فالذى يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة ، فيترك العاطف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام ... والذى يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها ، واذهاب توهم البدل والتفسير »(٨٥) .

وفى قول لحق سبحانه وتعالى « هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ليس لهم طعام الا من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية »(٨٦) .

نجد أن قوله تعالى « وجوه يومئذ ناعمة » بمنزلة ما يعطف على ما سبقه من قوله تعالى « وجوه يومئذ خاشعة » .. لأن المناسبة التى تسوغ العطف موجودة ، بل هو بمنزلة ما جاء معطوفا فى قوله تعالى « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون »(٨٧) .

ولعل السر فى ترك الواو هنا ــ والله أعلم ــ أن الكلام الأول طال، فكان قطع الثانى ، واستئنافه من غير واو فى تلك الحالة أقضى لحق البلاغة ، وقد آذن هذا القطع بالتباعد الشديد بين وجوه الكافرين ، ووجوه المؤمنين والتباين الكامل بين ما أعده الله لهؤلاء ، وما أعده لأولئك .

وبهذا يتضح لنا جليا أن السياق والنظم ، وطبيعة المعنى وأبعاده،

---

(٨٥) انظر التفسير الكبير مجلد ١٥ ص ٨٩ .
(٨٦) الآيات من ١ ــ ٩ سورة الغاشية .
(٨٧) سورة آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧ .

ودلالاته وأغراضه ، والاعتبارات التى تراعى فيه هذه الأمور مجتمعة هى التى تحكم فى ــ المقام الأول ــ توسط العاطف و عدم توسطه .

وقبل أن أختم الحديث فى هذا البحث أود أن أنبه الى ان امام البيانيين عبد القاهر الجرجانى قد ذكر نوعا من أنواع العطف وصفه بأنه خاص دقيق ، وانه مما يدل نظر الناس فيه ... وذلك ان الجملة قد تأتى معطوفة ، ولكنها لا تكون معطوفة على التى قبلها مباشرة ، بل على جملة بينها وبين هذه التى تعطف جملة أو جملتان ، ومثل لذلك بقول المتنبى :

تولوا بغتة فكأن بينا
تهيبنى ففاجأنى اغتيالا
فكان مسير عيسهم ذميلا
وسير الدمع اثرهم انهمالا

قوله : « فكان مسير عسيهم » معطوف على « تولوا بغتة » دون ما يليه من قوله : « ففاجأنى » لأن عطفه على هذا الذى يليه يفسد المعنى من حيث انه يدخل فى معنى « كأن » وذلك يؤدى الى أن لا يكون مسير عسيهم حقيقة ، ويكون متوهما كما كان تهيب المبين كذلك .

وذلك ان الجملة المتوسطة بين المعطوفة أخيرا وبين المعطوف عليها الأولى،وهى جملة « فكأن بينا تهيبنى ففاجأنى » مرتبطة بالجملة الأولى المعطوف عليها ، وهى « تولوا بغتة » فالثانية مسبب ، والأولى سبب ، لأن المعنى تولوا بغتة فتوهمت ان بينا تهيبنى . فالتوهم كان بسبب أن تولوا بغتة .

واذا كان كذلك كانت مع الأولى كالشىء الواحد ، وكانت منها بمنزلة المفعول والظرف وسائر معمولات الفعل التى تأتى بعد تمام

الجملة ، ولو عطفت الأخيرة عليها لدخلت تحت هذا المفهوم مما يؤدى الى فساد المعنى كما أشرنا فى بداية الكلام(٨٨) .

وكلام الامام هنا يذكرنى بما قاله البلاغيون فى شبه كمال الانقطاع الذى تحدثنا عنه سابقا فى قول الشاعر :

وتظن سلمى اننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

ففى هذا البيت علل البلاغيون عدم عطف جملة « أراها » على جملة « تظن » لئلا يتوهم أنها معطوفة على جملة « أبغى بها بدلا » فتكون من مظنونات سلمى فيفسد المعنى كما بينا ذلك فى مكانه .

ووجه الشبه بين الكلامين وان كان احدهما فى العطف والآخر فى تركه . انه هناك منع العطف خوفا من ايهام خلاف المقصود ، وفساد المعنى اذا ظن أنها معطوفة — على ما قبلها مباشرة ، وعطف هنا مع أن المعنى يفسد اذا توهم أنها معطوفة على ما قبلها مباشرة .

وقد قصدت بايراد هذا الكلام هنا ان أؤكد النظرة والرأى الذى أميل اليه ، وهو ان العطف وتركه فى الكلام الفصيح لا يرتبط فى كثير من الأحيان بقواعد البلاغيين وقوانينهم فى هذا الباب ، وانما يرتبط بحسن النظم وجماله ، وقصد المتكلم ، واستدعاء المعانى بعضها بعضا ، وتوافق الأغراض التى سيق لها الكلام أو تخالفها ..... » وتتبع ذلك فى الأساليب محتاج الى صبر وبصيرة ، لأنه كشف عن جذور المعانى ، ورجوع بالفروع الى الأصول .. فالمعانى فى الكلام الحى الحافل تتوالد وتطول وتشتجر وتلتف حتى تلتبس وتختلط الا على بصير بطرائقها كثير المراجعة لها »(٨٩) .

---

(٨٨) انظر دلائل الاعجاز ص ١٨٨ .
(٨٩) دلالات التراكيب ص ٢٣٨ .

هذا وقد نبه عبد القاهر الى أن العطف فى أبيات المتنبى لسابقة ليس لجملة « فكان مسير عيسهم » فقط ، وانمـا يتناول جملة البيت البيت مربوطا آخره بأوله ... لأن الغرض من هذا الكـلام أن يجعل تولهم بغتة ، وعلى الوجه الذى توهم من أجله أن الين تهيبه مستدعيا بكاءه ، وموجبا أن ينهمل دمعه ... فلم يعنـه أن يذكر ذملان العيس الا ليذكر همالان الدمع ، وأن يوفق بينهما . وكذلك الحكم فى الأولى أى المعطوف عليها ، فليس معنى قوله : ان العطف على «تولوا بغتة» أن يكون العطف عليه وحده مقطوعا عما بعده،بل العطف عليه مضموما اليه ما بعده الى آخـره ... وانما قصـد بقوله : انه معطوف على « تولوا بغتة » ان يصرف القارىء عن ظن أو توهم انه معطوف على الأقرب اليه ، وهو قوله « فغاجأنى » فيقع فى الخطأ(٩٠) .

فالعطف هنـا ليس عطف جملـة على جملة ، وانمـا هو عطف جملة وما يتصل بها على جملة أخرى وما يتصل بها .

ويقرب من هذا العطف على جملة الشرط والجزاء ، كما فى قـوله تعالى : «فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» (٩١) .

قوله : « ولا يستقدمون » معطوف على مجموع الشرط والجواب لا على الجواب وحـده ، اذ لا معنى لأن يقـال : اذا جـاء أجلهم لا يستقدمون .

ومما جاء العطف فيه على حده فى البيتين السابقين قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمـر وما كنت من

---

(٩٠) انظر دلائل الاعجاز ص ١٨٨ ، ١٨٩ .
(٩١) سورة الأعراف ٣٤ .

الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين » •

لو جرينا على الظاهر فجعلنا كل جملة معطوفة على ما يليها ، منع منه المعنى • اذ يلزم عليه أن يكون قوله « وما كنت ثاويا فى أهل مدين » معطوفا على قوله « فتطاول عليهم العمر » وذلك يقتضى دخوله فى معنى « لكن » ويصير كأنه قيل : ولكنك ما كنت ثاويا • وذلك ما لا يخفى فساده ، لأنه يخرج بالنظم عن المعنى المقصود منه •• فبان من ذلك أنه ينبغى أن يكون مجموع قوله : « وما كنت ثاويا فى أهل مدين » الى قوله « مرسلين » معطوفا على مجموع قوله : « وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر » الى قوله «العمر»(٩٢) •

وقد ذكر الدكتور شوقى أن ملاحظة عبد القاهر هنا ملاحظة نفيسة لم يستغلها البلاغيون بعده فى بحث الصلة بين الفقر ، وما بداخلها من عبارات •• ثم قال : « ونؤمن بأن عبد القاهر استلهم فى ذلك كلام أرسطو فى الخطابة عن الفقر ومراعاة الروابط ، وتداخل الكلام بعضه فى بعض »(٩٣) •

ونحن نوافق أستاذنا الفاضل الدكتور شوقى ضيف على أن ملاحظات عبد القاهر هنا هى ملاحظات نفيسة ودقيقة ، ولكنى لا استطيع ان أوافقه على ايمانه ويقينه بأن عبد القاهر قد استلهم فى ذلك كلام أرسطو فى الخطابة ••• ذاك ان كلام عبد القاهر هنا يتصل بقضية النظم خصوصا النظم القرآنى ، وهى القضية التى أدار عليها عبد القاهر كتاب ــ دلائل الاعجاز ــ وهى قضية عربية فى

---

(٩٢) دلائل الاعجاز ص ١٩١ •

(٩٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٠ •

طابعها تتصل بأساليب العرب ، وطرائق تعبيرهم • والحديث فيهـا ، والوقوف أمامها بدأ منذ نزل القرآن الكريم • وقد تحدث فيها رجال البلاغة والبيان كثيرا قبل عبد القاهر ، ثم جاء الامام فأوفى على الغاية فيها ، وبذ فى ذلك كل من كتب فى تلك القضـية الى اليـوم • فليس عجبا أن يهتدى عبد القاهر الى تلك الملاحظات السابقة بفكرة الثاقب ، وأن يستلهم ذلك من نظرته الصائبة الى دقة النظم القرآنى دون حاجة الى استلهام ذلك من خطابة ارسطو •

ونسـأل الله سبحانه التوفيق والسـداد انه نعـم المولى ونعم النصير ، وهو على كل شىء قدير •

د / عبد الحميد مصطفى ابراهيم

أهم مراجع البحث

١ ــ الاتقــان فى علوم القرآن ــ الســيوطى ــ الطبعة الرابعة ــ الحلبى •

٢ ــ أسرار التكرار فى القــرآن ــ ابن حمــزة الكرمانى ــ تحقيق عبد القادر عطا •

٣ ــ الايضاح ــ الخطيب القزوينى •

٤ ــ البرهان فى علوم القــرآن ــ الزركشى ــ تحقيــق • محمــد أبو الفضــل •

٥ ــ بغية الايضاح ــ الشيخ عبد المتعال الصعيدى •

٦ ــ البلاغة تطور وتاريخ د• شوقى ضيف ــ الطبعة الرابعة •

٧ ــ البيان والتبيين ــ الجاحظ ــ تحقيق عبد السلام هارون •

٨ ــ البيان فى غريب اعراب القرآن ــ ابن الأنبــارى ــ تحقيق طه عبد الحميد •

٩ ــ التحرير والتنوير ــ الطاهر بن عاشور ــ الدار التونسية للنشر

١٠ ــ تفســير أبى السعود ــ للقاضى أبى السعود محمد العمادى • دار احياء التراث العربى ــ بيروت •

١١ ــ تفسير البحر المحيط • لأبى حيان ــ الطبعة الثانية ــ دار الفكر بيروت •

١٢ ــ التفســير الكبير ــ فخــر الدين الرازى ــ الطبعة الأولى ــ دار الفكر •

١٣ ــ ثلاث رســائل فى اعجاز القرآن ــ تحقيــق محمد خلف الله ، د• زغلول سلام •

١٤ ــ حاشية السيد على الكشاف • دار المعرفة بيروت •

١٥ ــ دلائل الاعجاز ــ عبد القاهر الجرجانى ــ تحقيق رشيد رضا ــ دار المعرفة •

١٦ ــ دلالات التراكيب د٠ محمد أبو موسى ٠
١٧ ــ روح المعانى ــ الألوسى ــ دار الفكر بيروت ٠
١٨ ــ سر الفصاحة ــ ابن سنان الخفاجى ــ تحقيق الشيخ عبد المتعال الصعيدى ٠
١٩ ــ شروح التلخيص ــ للسبكى وآخرين ٠
٢٠ ــ الصناعتين ــ لأبى هلال العسكرى ــ الطبعة الثانية ــ مطبعة صبيح ٠
٢١ ــ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ــ للعلوى ــ مكتبة المعارف الرياض ٠
٢٢ ــ العمدة ــ لابن رشيق ــ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ٠
٢٣ ــ فتح القدير ــ للشوكانى ــ طبعة بيروت ٠
٢٤ ــ الفوائد المشوق الى علوم القرآن ــ لابن قيم الجوزية ــ دا الكتب العلمية ٠
٢٥ ــ الكشاف ــ الزمخشرى ــ دار المعرفة بيروت ٠
٢٦ ــ لسان العرب ــ لابن منظور ــ طبعة دار المعارف ٠
٢٧ ــ المثل السائر ــ لابن الأثير ــ تحقيق د٠ أحمد الحوفى ، د٠ بدوى طبانة ٠
٢٨ ــ المصباح ــ بدر الدين بن مالك ٠
٢٩ ــ المطول ــ سعد الدين ٠
٣٠ ــ مفتاح العلوم ــ السكاكى ــ الطبعة الأولى ٠
٣١ ــ الموازنة بين أبى تمام والبحترى ــ للآمدى ــ تحقيق ــ السيد صقر ٠
٣٢ ــ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ــ البقاعى ــ مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ــ الهند ٠